المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الثالث عشر بعد المئة

١ اغسطس سنة ١٩٤٨ ٢٥ رمضان سنة ١٣٦٧

من فلسفة طاغور

الناسك : أنا حرّ . أنا الواحد العظيم المنفرد بذاتي .

« عندما كنت لله عبداً ، أيتها الطبيعة ، أثرت بعض قلبي إزاء بعض ، وبعثتها في حربٍ دموية انتحاراً في سبيل الدنيا . وسلطت عليّ الشهوات التي ليس لها من غاية إلاّ أن يأكل بعضها بعضاً ، وأن تلتقف كل ما يسمع فيها ، فأمضّتني ألماً وفرَقاً .

« أما وقد تحرّرت من المخاوف والشهوات ، وبعد أن انكشف عن بصري الضباب ، وبعد أن أشعّت قوى عقلي بريئة وضّاءة ، فلأخرجنّ الى عالم الكذب والبهتان مرّة أخرى ، ولأجلسنّ على ذات قلبه ، غير ملموس ، ولا بمزحزح عن مكاني

* * *

« فازانتي : ألا يوجد في هذه الدنيا الفسيحة من حِمىً ؟

« الناسك : حِمىً ؟ ألا تعرفين أن هذه الدنيا دوّة لاقرار لها ؟ فمجموع هذه الخلائق إنما تخرج من ثقب العدم باحثة عن حِمىً يحميها ، ومن ثمّ تدخل ثانيةً في فوّهة الخواء اللامتناهي ، وهنالك تفقد آثارها . ها هي ذي أشباح الكذب والرّياء تتخايل من حولك رواحاً وجيئة في سوق الأوهام والخيالات ولا تعطينا من غذاء ، اللهمّ إلاّ عدماً باطلاً . إنها إنما تحرّك فينا نهمة الجوع ثم لاتكفينا . ابتعدي من ثمّ يابنيّتي ! ابتعدي

* * *

الناسك : لقد بدأ الليل يحلك ظلامه ، واشتدّ وحشته . إنه يتربع على كاهل الوجود كأنه امرأة مهجورة . أما هذه النجوم ، فدموعها استحالت ناراً !

« أمٍ يابنيَّتي . . لقد ملأت أحزان قلبك الصغير كل ليالي حياتي بالألم والعنف ، والى الأبد . إن يدك الجميلة قد تركت لمستها الرقيقة في نسيم هذا الليل . إني أشعر بها على جبيني يا حبَّة القلب . إن تنهداتك قد تبعتني لمَّا أن فررت بعيداً ، وتعلقت بقلبي . ولسوف أحملها حتى مماتي .

* * *

الملكة جوناڤاتي : تكلّم الآلهة

« هل أغضبتك يأمي العزيزة ؟ أنتِ تمنحينَ المستجديات أولاداً يبعنهم ليَعشْنَ بما يبذل لهنَّ من ثمن ، وللباغيات يقتلْنَهم ليسلمنَ من العار . وهأنذا ملكة عظيمة ، وعند قدميَّ تسجد الدنيا كلها . هأنذا أمضي باحثة بلا أمل في أن أحظى بطفل أضمه الى صدري لعليَّ أنعم بعاطفة تجعل حياتي أغلى قيمة وأكبر خطراً . أي جرم اقترفت ، وأية كبيرة ارتكبت يأمَّاه لاستحق كل هذا ، ومن أجلها تطردينني من ملكوت الأمهات ؟

* * *

بين راغوباتي الكاهن وجاسنج خادم المعبد :

« جاسنج : ما الذي سمعت ؟ أيتها الآلهة الرحيمة أهذا أمرك ؟ أرغبتك في أن يقتل الأخ أخاه ؟ سيدي ! كيف تقول إن هذه هي إرادة الأم ؟

« راغوباتي : لم تكن لديَّ من وسيلة أخرى لأخدم إلاهتي

« جاسنج : وسيلة ! ولماذا الوسائل ؟ أيتها الأم : أليس لديك سيفك القاطع لتنفّذي أنتِ بيدكِ القويَّة ؟ أهو لزامٌ أن تذهب ارادتك حافرة تحت الثرى انفاقاً ، كما يفعل اللص القاتل ، لتسلب سرّاً في الظلام ؟ يا للخطيئة !

« راغوباتي : ماذا تعرف عن الخطيئة ؟

« جاسنج : ما عرفته منك !

« راغوباتي : إذن قف معي ! قف وتلقَّ درسك ثانية منّي . ليس للخطيئة من معنى في الواقع . إنك تقتل لتقتل . ليس في ذلك من خطيئة أو أي شيء آخر . ألا تدري أن ثرى هذه الأرض إنما يتألَّف من عدد غير محدود من حوادث القتل والتفظيع ؟ إن الزمن

القديم ما ينفك يخط حوادث الحياة المنحدرة في جوف العدم مع مخلوقاتها بمداد من دم! يقع القتل أينما تتصوّر. في القفر المجدب وفي حظائر الانسان، وفي عشوش الطير، وفي حفر الحشرات، وفي البحر وفي السماء. وهنالك قتل من أجل الحياة، وقتل من أجل التسلية وقتل للاشيء أصلاً. ان الدنيا تقتل من غير أن تهدأ نوبتها. وكذلك الإلهة «كالي» روح الزمان الفائض بالفتنة، واقفة ولسانها العاطش مندلع من فمها، وكأسها بيدها، حيث إليه يتسرّب دم الحياة القاني، كما يتسرّب الرحيق الى الدّنان من عناقيد العنب الشهية.

« جاسنج: قف يأستاذي. إذن فالحب تضليل والرحمة سخرية! وكل ما في هذه الحياة من حق باقٍ منذ أبعد الأزمان، منحصر في نهمة القتل والتعطش الى الهدم والتحطيم؟ واذا صحّ هذا أليس من المعقول ان تكون الحياة قد حطم بعضها بعضاً وفنت منذ أزمان قصية؟

« يأستاذي: إنك تعرف الحق كما تعرف الباطل. إن شرائع القلب ليست بذاتها شرائع الكتب المقدسة. العيون لا تستطيع ان ترى بنورها هي. بل يجب أن يأتيها النور من الخارج. أعف عني يأستاذي. أعف عن جهلي.

« من ذا الذي يقول إنْ طرق الدنيا ملتوية متعسّرة؟ على أية حال سوف تسلم بنا الى النهاية. النهاية التي ينتهي معها سلطة الشرائع والاحكام، وتنسى معها خطيئات الحياة وآلامها، حيث تلك الراحة الأبدية.

« ماذا تجدي عنا الكتب المقدسة، والمعلمون وتعاليمهم؟

« لا يأستاذي: لا تحدّثني عن الحب. فلأفكر دائماً في الواجب. إنما الحب كالحشيش الأخضر وكالأشجار وكموسيقى الحياة، كلها أشياء ينعم بها سطح الأرض. إنها تأتي وتفنى كالأحلام..... ولكن من وراء هذه الأشياء يكون الواجب، كطبقات الصخور العاتية، أو كحمل ثقيل لا تزحزحه القُوَى.

***

« ماليني: لقد حانت ساعتي، وأصبحت حياتي كقطرة الندى المترقرقة على زهرة اللوتس، تهتز خافقة في طيات الزمان. إني أغمض عينيّ، فيخيل إليّ أني أسمع ضجيج السماء، وفي قلبي حرقة لا أعرف سببها.

« لقد سفر القمر في هذه الآونة من بين السحب وروح السلام يرف على صفحة السماء، كأنه يحتضن الدنيا برمتها بين ذراعيه، تحت ضوء القمر العظيم ... من هنا تذهب الطريق وتمتد الى حيث تفقد آثارها بين الأشجار الشيقة بظلالها الصامتة. وهنا تقوم البيوت. وهنالك يقوم المعبد. وشاطىء النهر يلوح من بعد صامتاً موحشاً. فالظاهر أني هبطت، كهاطل ينتفض فجأة من سحب كلها أحلام، الى عالم الانسانية، فكنت على جانب الطريق.

* * *

« كيمنكر: انها لاسوأ اللحظات تلك التي يخدع الانسان فيها قلبه. فان الشهوة العمياء تصبح كتاب صلواته، وتتربع الأوهام على عرش آلهته. أمن وراء هذا القمر، الذي يستلقي قائماً بين السحب السارية انسياباً، يكون عالم الحقيقة الخالدة؟ الصبح السافر سوف يغشانا في الغداة. وستبدأ الجماهير الجائعة تجوب أنحاء بحر الوجود بآلاف من الشباك، وقلما يتذكرون هذا الليل الهادي بأضوائه القمرية، الاّ كما يتذكرون غشاء رقيقاً من الباطل تنسجه سنات النوم، أو الأشباح، أو الاوهام. إن تلك الشبكة السحرية التي تنسج مادةً من مفاتن خادعة تبديها امرأة، لهذا مثلها، وهل يمكن أن تشغل محل الحقيقة العظمى؟ هل لعقيدة يخلقها وهمك أن تطفىء عطش الهاجرة، إذ تتلظى نيرانها، وتشتد حرارتها؟

* * *

« إذن يجب عليك أن تنتشل نفسك من أحلامها وانظر أمامك. فان البيت القديم الذي أربته العصور، تلتهمه النيران. وأرواح أسلافنا تطير متناوحة فوق الخرائب، كطيور تصرخ باكية على عشوشها المحطمة. أهذا وقت التردد؟ حيث الليل مشتد الحلك، والأعداء يطرقون الباب، والرعايا نائمون، والناس سكارى بأوهامهم، وكل منهم يضع يده على حنجرة أخيه؟

* * *

وفي أيام المحن تنحل أقدس الروابط، فالأخ يحطم أخاه، والصديق يخون الصديق. سأخرج في الظلام ومن ظلام الليل سوف أعود، لاقرع الباب. فهل سأجد صديقي واقفاً يلحظني، وبيده مصباح مضيء؟ سأحمل هذا الأمل بين جوانحي.

تنمية مدارك
الطفل

غاية التربية والتعليم أن تعين على النمو : فالروح تنمو باستخدام مداركها ، والمدارك تنمو باظهارها نفسها تلقياً وتعبيراً ، وهذه مظاهر مرتبط بعضها ببعض لا انفصام لها . إن عمل النموّ هو أن يعمل كل عضو لنفسه ، أي اذا أريد للطفل أن ينمو في عقله وجسمه فعليه أن يستخدم مداركه إذ أن نسبة استفادة الطفل من جميع مخارج التعبير التي منحه إياها الباري عزّ وجلّ تتوقف على مقدار نموّ مداركه وسعتها ، فالنموّ الذاتي عن طريق التعبير الذاتي هو الاول والآخر في التربية والتعليم وعليه المعوّل ، فعلى المعلم أن يقدّم الرغبة والارشاد ، والمادة والكتاب ، ويقف عند هذا الحد ليترك لشخصية الطفل مخرجاً ، ولكن المعلم في مدارسنا في أكثر البلاد العربية يتداخل الى درجة قصوى ، ويظهر تأثيره في كل شيء بحيث يصبح الطفل آلة مسيرة فهو الذي يشرح الدرس ، وهو الذي يكتبه على اللوح الاسود بلا انقطاع ، والطالب لا يقدم على عمل ما ، وقد يقوم بعمل ميكانيكي تقليدي ، وبذلك تمّحي الصلة بين الادراك والتعبير بسبب تداخل المعلم ، فلا يترك الطالب يسعى لنفسه : « وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى وأن سعيه سوف يُرى »

إن خبرتي في التربية والتعليم تجعلني أجهر بما يأتي :

إن سبب تقهقر مدارسنا ناشىء عن فقدان الطالب حريته في التعبير ، فلو سئل المعلم لِمَ لا نسمح للطالب بأن يعبر بحرية عما يعلم لأجاب : إن ترك الطالب يعبر بحرية ، يعود بنتائج غير مرضية . وهو جواب غير صحيح لأن نظم التربية والتعليم التي يسير عليها المعلم قد عوّدته أن يهتم بالنتائج المحسوسة الظاهرة — تلك النتائج التي تظهر المدرسة لدى التفتيش أو عند الامتحان بمظهر رائق ، فهو يخشى صولة التنظيم المتبعة أن تقضي عليه ، اذا ترك تلميذه يتدرّج بالتعبير الحر ، لأن أول مظاهر النموّ في الطفل تكون مقرونة بالجهل ، وعدم

العناية ، وعدم الترتيب ، والمعلم يخشى هذا ، ولا يسأل إلاّ عن الأشياء المرتبة الصحيحة ، كي تقر بها عين الزائرين . ومن هنا نخلص الى نتيجة ظاهرة تنخر في قواعد مدارسنا وهي أن التفتيش في المدارس لا يجري على الأفراد بل على المجموع قاطبة ، وإن الامتحان في نهاية كل فصل ينظر فيه الى عمل المجموع : فما دام التفتيش وراء المعلم يحسه ، وما دامت الامتحانات تحدق به ، فهو لاجرم يعمل على ارضاء المفتشين ، ويزين لهم نجاح طلابه بالنتائج المموّهة

كلنا يعلم أن المعلم يسعى لا ليؤسس الطفل على قواعد ثابتة ، بل ليبني في عقله بيتاً من المعلومات أوهى من بيت العنكبوت ، في ظاهره زخرف القول ، ابتغاء مرضاة المفتشين ، كأنما الغاية من التربية ارضاء المفتشين ، والنجاح في الامتحان . إن هول الامتحان وشبحه المخيف لا يزايل فكر الطالب — فالامتحان يهدده أنى سار ، فاذا ما عبر الطالب فيه ممّا يخالج نفسه ، جاءت النتائج على غير ما يشتهي المعلم ، فرسب في صفه الحول أو الحولين ظلماً وقسراً وهو ليس بالملوم ، فالامتحانات خطرة ومخيفة وأغلب ما تكون نتائجها ناقصة مضطربة ، والأحرى أن يسمح للطالب أن يعبر عن نفسه بطريق غير الامتحان : فانه إذا لم يسمح له بذلك في بدء حياته الدراسية صعب عليه انتهاج ذلك في باقي حياته . إذا أردنا أن نعين الطفل على النموّ ، وجب علينا أن نقدم شيئين بسخاء وكرم وهما : الغذاء والرياضة — فالغذاء ضروري للنمو ، والحاجة الى الرياضة كبيرة وليست بأقل أهمية من ذاك لنموّ الجسم فأطرافنا وأعضاؤنا وحواسنا ومداركنا لا تنمو إلاّ بالرياضة ، وإنها عند ما تصل الى أقصى درجة في النموّ ، لا يتيسر بقاؤها على الكمال الذي وصلت إليه إلاّ بالاستمرار على الرياضة ولما كانت القدرة على النموّ غير محدودة في المدارك العقلية والروحية ، كانت الرياضة الدائمة ضرورية لها ، ولا يمكن الاستغناء عنها . ففي عهد الطفولة حيث تكون عوامل النمو والاتساع في أقوى درجاتها ينجم عن ترك الرياضة عواقب وخيمة ، لا يمكن تقديرها . فاذا حصر طفل صحيح الجسم في سريره حولين من أعوامه الأولى بلا حركة أو درج تفر جسمه ، ولا سيما أطرافه ضرراً كبيراً .

وهناك حقيقة أخرى وهي أنه يجب أن يقوم بفعل النموّ الطفلُ نفسه لا غيره ، ولذ

يجب أن يتناول الطفل الغذاء الذي يقدّم إليه بنفسه ، ثم يهضمه بنفسه ، وكذلك نمو أعضائه ومداركه ، فهو وحده الذي يجب أن يمرنها لا غيره : فالنموّ هو الشيء الوحيد الذي لا ينوب عنا أحد بالقيام به ، كما لا يأكل أحد بالنيابة عن غيره ، لأن مشاهدة الآخرين يأكلون لا تغذي أجسامنا ، كما لا يقوي أطرافنا مشاهدة آخرين يمرنون أطرافهم : فالعوامل التي تعمل على نمو الطفل تأتي من الداخل فله — وله وحده — أن يغذيها وأن يستعملها ، وأن يظهرها ، وهذا أمرٌ لا ريب فيه ، إلاّ أننا كثيراً ما نغضي عنه ، رغم جلائه ، لأن أشد الأمور اهمالاً اظهرها وأقربها تناولاً .

إن جميع الحقائق التي ذكرتها آنفاً لا جدال فيها إلاّ أن الأخذ بها أمرٌ لم يتم بعد ، فيظهر ان نظم التعليم في أكثر الأقطار العربية تتغاضى عن هذه الحقائق ، ولا تقدّرها حق قدرها. لقد كان همُّ المعلم ان يقدم للطفل كل شيء : فهو الذي يغذيه ، وهو الذي يهضم له طعامه ، وهو الذي يأخذ بيده ليتدرّج به على نقل خطاه ، وتمرينه على المشي ، وبذا يصبح الطفل مسيراً مراقباً ومسيطراً عليه .

يحدد المعلم للطالب كل ما يجب ان يقوله أو يشعر به ، ويحصر له ما يجب أن يفكر به ، أو يكتبه ، أو يعمله فيلقي على سطح عقله شيئاً من المعلومات ، ولا يتركه وشأنه لحظة واحدة يفكر فيها منفرداً أو يدرس فيها أو يلجأ فيها الى كتاب يسترشده ، ليكتب ما توحي إليه مداركه ، وهكذا يحول المعلم دون الاستقلال الفكري في الطالب ، فيخرج ضعيفاً في المدارك التي يستولي بها الانسان على العالم ، ويعيش حياته كلاًّ على مولاه الأستاذ الذي قضى على شخصيته ، فطرحه في هذا العالم آلة معطلة لا يعرف للحياة معنىً ، ولا يفقه معنى السعادة من أين وكيف جاء هذا الفهم المغلوط في غاية التربية والتعليم في مدارسنا ؟

لنسأل أنفسنا ما هي المدارك التي تنميها مدارسنا ؟ إن نظرة واحدة إلى جدول الدروس تبين لنا قسمين من العوامل : فالقسم الأول يسمى الإدراك ، والقسم الثاني يسمى التعبير ، فحيثما تعلم الدروس من التاريخ والجغرافيا والعلوم الحديثة تكون الغاية تنمية مدارك الطفل المتلقية ، وحيثما تعلم دروس الأشياء والرسم والغناء تكون الغاية تدريب قوى الطفل المعبرة إن المدارك المتلقية هي التي تمكننا من فهم ما يحيط بنا ، وهي ترسم في أنفسنا ، ثم تصبح

ملكاً لنا ، وهي تنقسم قسمين : الأول يختص بالمدارك العقلية التي بها نرى ونلاحظ ، ونفكر ونتأمل ، وندرك ونفهم ونجادل ونحاج . والثاني: يختص بالمدارك العاطفية ، وهذه قسمان أيضاً . فالقسم الأول : الحنو ، والثاني الاعجاب .

وتقسم المدارك المعبرة إلى أربعة أقسام بحسب مخارجها التي تبرزها ، وللمعلم الحرية التامة في استخدام هذه المخارج والاستفادة منها . فالاول اللغة ، والثاني الحركة الشخصية والثالث العمل اليدوي ، والرابع الفن ، وينطوي تحت المخرج الاول تعلم المواضيع مثل الانشاء ، الخطي والشفوي ، والقراءة الجهرية والصامتة والالقاء . ويهمل المخرج الثاني تعليم المواضيع كالتمارين الرياضية والألعاب والتمثيل ، ويحتوي المخرج الثالث على تعليم المواضيع كالنجارة والبستنة في مدارس البنين ، والخياطة والطهي في مدارس البنات ويدخل ضمن المخرج الرابع تعليم المواضيع كالرسم والتصوير والموسيقى . بقي علينا أن نسأل أنفسنا ما هي الصلة بين المدارك المتلقية والمدارك المعبرة ، وهل من الممكن ان تنمي كلاً منهما على حدة ، وهل في الامكان ان نخصص هذه الساعة لتدريب المدارك المعبرة وتلك لرياضة المدارك المتلقية ؟ كلاَّ — لا يمكن ذلك لأن المدارك المتلقية والمعبرة لا يمكن اعتبارهما وحدتين مستقلتين — فالواحدة متممة للأخرى ، وكل واحدة منهما بمثابة الروح لغيرها ، فاذا انفصلت الواحدة عن مكملتها شلت وتعطل عملها.

اذا كان الادراك حيًّا احتاج الى التعبير ، وإذا كان التعبير حيًّا احتاج الى الادراك وعلى ذلك فانه اذا كان التعبير حيًّا ناشئاً عن ادراك نفساني كان شعور الطفل بالأشياء حيًّا حقيقيًّا . ان عوامل الادراك تنمو في الطفل وتظهر بواسطة التعبير لا بطريقة أخرى ، أما عوامل التعبير فلا تنمو إلاَّ بطريق الادراك : فالعقل الذي يحاول ان يرسم ما يرى يدرّب فيه قوة الملاحظة ، كما إنه ينمي قوة التعبير ، وكلما فهم الأشياء التي تأتي تحت إدراكه أو حسه ازداد عمله ، ومتى ازداد فهماً للأشياء نما عقله وأصبح ذا رأي سديد ، وفكر ثاقب. فالمرء الذي يحاول أن يعبر عن آرائه في مسألة عويصة اجتماعية كانت أو سياسية ، أو طبيعية أو اقتصادية ، فانه يسعى بهذه المحاولة أن يعبر عن نفسه بكل جلاء ، فيجعل من الاضطراب السائد في نفسه انتظاماً وتنسيقاً . وكلما أثار الانساق عقله المظلم ، وتعمق في الموضوع اتسعت مداركه ، واهتدى الى نواحٍ جديدة فيه لم يك قد وصل إليها من قبل : فالطفل الذي يحاول أن يرسم ما يرى إنما يُكوّن اتصالاً دائماً بين الادراك والتعبير ، لأن كلاًّ منهما يساعد على اظهار الآخر حتى في المواضيع الجافة مثل الرياضيات.

يافا — فلسطين شريف النشاشيبي

نظرات في النفس والحياة

- ١٠ -

نظرات ميشيل مونتاني

ميشيل مونتاني هو الأديب الفرنسي صاحب الرسائل المشهورة وكان ثمرة من ثمرات عصر إحياء العلوم في أوروبا . كان من أسرة نبيلة وولّى القضاء وصار حاكماً لإحدى المدن فترة من الزمن ، ولكنه قضى أكثر حياته في قصر أجداده بين الكتب ، وكانت القراءة وكان التفكير والتأمل في صفات النفوس ، أحبّ شيء إليه في الحياة مع أنه أخذ نصيباً من كل مباهجها ، فانه كان يحب الحياة شأنه في ذلك شأن أدباء عصر إحياء الآداب والعلوم . ولكنه كان يفضّل القصد في كل الأمور ويرى أن الخطة الوسطى هي مفتاح السعادة فلم يكن متهالكاً على اللذات كما تهالك عليها كثير من الأدباء بعد عصر الترهب والتقشف ورفض الدنيا والخشية من متعها . وكان يقول بتحكيم العقل ، ولكنه كان يحذَر الاغترار بأحكامه . وكان يعرف قصوره وإنه داعية الى الكبر والغرور ورسائله تدل على اطلاع كبير على أدب القدماء وعلمهم ولا غرابة في ذلك فإن أباه كان قد قضى عليه ان يتعلم اللاتينية في سن الطفولة . وله آراء كثيرة كآراء المعاصرين لنا ، مثل رأيه في اجتماع الشخصيات العديدة في النفس الواحدة ورأيه في أنّ الغريزة في الحيوانات هي في الحقيقة نوع من العقل ومظهر من مظاهره ورأيه في أن التفكير المؤسس على التجربة أصدق من التفكير المؤسس على النظريات العامة التي تعتنق أولاً ثم يحاول صاحبها اثباتها بعد ذلك بما يشاهد . وهو على اعتزازه بحكمة القدماء يرى أنّ المشاهدة والملاحظة والتجارب أهمّ منها . ولكن مما لا شك فيه ان دراسته لكتب القدماء كانت رياضة صالحة لعقله مكنته من الانتفاع بالتجارب والملاحظة . وكان يرى أن الاقتناع بالآراء والعقائد لا يكون بالقهر والقسر ، ولذلك كان ينعي على الطوائف الدينية في عصره حرق بعضهم بعضاً وقتال بعضهم بعضاً . ولذلك كان يقول لهم ان آكلي

اللحوم البشرية أرأف منهم وأكثر إنسانية . وقد كان معتدلاً في نقد الآراء المقررة . وكان على اعتداله وتحفظه صريحاً في بعض رسائله . وكانت لمونتاني آراء جديدة في التربية مؤسسة على تجاربه ومشاهداته وربما كانت كما يقال (رد فعل) بسبب ما ألزمه أبوه في صغره. وكانت دراسته النفس البشرية في رسائله وسيلة من وسائل التربية ، كما كانت ذريعة الى السعادة ولذّات الفكر . وكان ذا رأفة كبيرة بالحيوانات والطيور . ولا غرابة في ذلك بعد أن رأيناه ينسب إليها العقل . وكان يرى أنها أكثر شبهاً بالإنسان في إحساسه وعقله مما يظن الانسان . وقد ترجمت رسائله عقب نشرها الى لغات كثيرة. وكان الأدباء مولعين بقراءتها وتدبر أوصاف النفس فيها فكانت لشكسبير الشاعر الانجليزي نسخة منها — وقد ذكر مونتاني في بعضها أنه يفضل من الكتب تلك التي لا يرتبط في قراءتها بإتمامها دفعة واحدة بل يتنقل فيها ويغادر القراءة متى شاء ويعاودها متى أراد . وهذه كانت خطته في كتابة أكثرها فانه في الرسالة الواحدة يتنقل من موضوع الى موضوع يتصل بالأول ويوحي به ذلك الموضوع الأول . ومن نظراته ما يلي :—

(١) إذا كان المرء أقدر على الفكر وأدقّ فيه نظراً وأبصر بمسالكه وحيله وعرف الناس منه ذلك فانهم يكونون أسرع الى كرهه وأعجل الى بغضه خوفاً من قدرة عقله أن تصيبهم بسوء وأن تعاجلهم بشر ، ولا سيما اذا ظنوا فيه نقصاً في الامانة والنزاهة . أما إذا كان غير قادر على الفكر فانهم قلما يختصونه بمثل هذا البغض حتى ولو كان سيء الخلق . فالناس يخشون أن يستخدم المرء فكره فيما يسوءهم ويضرهم سواء أكان أميناً أم كان غير أمين . وهذا سبب من أسباب كره جمهور الناس لذوي الفكر — وهم في هذه الحالة ينسون أن الغبي الماكر قد يبلغ بمكره من أذاهم ما لا يبلغه المفكر .

(٢) بعض الناس يتعلم المنطق كي يخالف به أصول المنطق والحق، وكي يقنع الناس بالباطل. وهو كالذي يتعلم القوانين كي لا يتقيد بها وكي ينجو من قصاص خرق سياجها لأنه بتعلمها يعرف منافذها ومخارجها وأبواب نقصها وحيل التهرب منها . وكذلك نرى أناساً يتعلمون المنطق لمثل هذه الغاية في تلبيس الحق على الناس . على أن أكثر من يتعلم المنطق كي يطبقوه على الحياة بحسن نية ، يعجزون عن تطبيقه تطبيقاً صحيحاً بسبب غلبة

الطباع والنزعات النفسية والشهوات والرغائب والمطامع . فالمنطق الصحيح كثيراً ما يكون مهجوراً منبوذاً في الحياة سهواً أو جهلاً أو عمداً أو مخادعة من الطبع للعقل . ولولا هذه الموانع لكان نفعه للناس في الحياة أعظم وفائدته أتم . ولكن المرء كثيراً ما يعتنق الرأي أولاً ثم يتخذ من المنطق ما يسوّغه .

(٣) قد تكون للانسان ميول نفسية مستترة وصفات لا يفطن لها . ولكن جسمه قد يدل عليها . فقد كان شيشرون الخطيب الروماني به ميل شديد الى السخر يظهر منه وان أخفاه، بدلالة تجعّد أنفه وتقلّصه . وكان الاسكندر المقدوني والكبياديس الأثيني معجبين بجمالهما وكانت دلالة هذا الاعجاب في جسم الأول انه يميل برأسه زهواً ودلالته في جسم الثاني لثغة بها أنوثة في كلامه . وقس على ذلك باقي الصفات المستترة . وقد يحاول المرء أن يخفي الحسد أو الحب أو البغض فينم عليه جسمه ، ثم يتعجب اذا نسبت إليه هذه الصفات.

(٤) قد يظن بعض الناس أن الكذب صفة مقصورة على الاراذل . والأوغاد والأنذال . ولكن الحقيقة هي انها صفة عامة شاملة . فاذا نجد كثيراً من الأخيار الأفاضل الذين تكاد لا تجد فيهم عيباً آخر بارزاً لا يتورعون من الكذب . إما على سبيل العمد أو المغالطة للنفس.

(٥) بعض الناس قد يتعوّد الكذب حتى لا يستطيع أن يَصدُق وان كان الصدق منجيه من ضرر أو تلف . وهذا من غرائب تحكّم العادة اذ توهم المرء أن الكذب هوَ الذي ينجيه كما تعوّد أن ينجو بالكذب في حالات فيحسب أنها قاعدة مطردة حتى ولو بدا أن الصدق منجيه فانه يشك فيه ويحذره . وتحكّم العادة يذكرني قصة رجل ممن يعرضون أعمال المهارة في إصابة الهدف كان يوقف امرأته أمام جدار من الخشب ويرسم حول جسمها خطاً ثم يقذف بالمُدى من مكان بعيد بعض البعد فتصيب المُدَى هذا الخط ولا تمس المرأة ولا تجرحها . واتفق أنه نقم على امرأته وأراد أن يقتلها قتلاً يظنه الناس خطأ في إصابة الهدف من غير عمد ، فصار يرمي بالمدية إثر المدية فلا يستطيع أن يصيبها ولكنه يصيب الهدف الذي تعوّد أن يصيبه . وذلك من حكم العادة. ولعلّ عاطفة في صميم نفسه كانت أيضاً تمنعه من قتلها وان كان لم يفطن الى عاطفة الحب أو الرحمة المستترة وفطن الى عاطفة حب

الانتقام الظاهرة . ولعلَّ اعتزاز نفسه بفنّ إصابة الهدف، منعه من أن يتكلف الخطأ بإصابة زوجه . مهما حاول ذلك

(٦) في بعض الأحايين يدفع الخوف الانسان الى الانتحار خوفاً من الأمر التي يتوقع ضرره، وان كان ذلك الضرر أهون من الموت. وقد ينتحر المرء خوفاً من الموت في أي شكل من أشكاله، فهو يموت من خوف الموت. وهذا يدل على ان الخوف أشد على النفس من الموت. ولا أخاف من شيء قدر خَوْفي من الخوف، فان للخوف عدوى وأخذة وبغتة وإلحاحاً. وقد يخاف المرء حتى مما هو عونٌ له على الخوف، ومنجاة له منه. واذا لم يدفع به الخوف الى التهلكة فقد يدفع به الى الجنون أو الى الاقدام على ما يخشى ويخاف . وقد يسري الخوف في أهل المدينة الواحدة فيقاتل بعضهم بعضاً من سوء الظن وتَوَقُّع الأعداء . وكل منهم يظن انه يقاتل العدو المخوف الذي بغتهم . وخوف المرء من الألم قد يكون أشد من الألم وخوفه من حوادث تصرف الأقدار وانشغال باله بذلك الخوف قد يكون أشد من تلك الحوادث . وقد تسري عدوى الخوف في الجيشين المتقاتلين فيفر كل منهما من الآخر كما حدث في بعض وقائع الحروب المعروفة في التاريخ. وهذا يذكرني بما ذكره هازليت في إحدى رسائله من ان فتاة تُركت في حجرة مغلقة بها جثة فلج بها الذعر والرعب، حتى أقدمت على ما تخشاه، فعانقت الجثة وماتت من الهلع والذعر . ويذكرني بقصة أظن أنها في كتاب من كتب أناتول فرانس عن رجل من أهل مدينة ذهب إلى الريف ونزل في نزل صغير ولأمر ما ذاع بين الريفيين أنه فوضوي جاء من المدينة كي ينسفهم بالقنابل ، فصدقوا الاذاعة الشائعة وتسللوا إليه في خفوت وسكون في جنح الليل كي يقبضوا عليه مباغتة قبل أن ينسفهم بالقنابل وكانوا يرتعدون وهم يتقدمون خلسة نحو حجرته ويفرون عائدين كلما ظنوا أنهم سمعوا صوتاً. وكان الرجل قد أحسَّ بهم فظن أنهم لصوص جاءوا ليقتلوه ، فسرى الرعب في نفسه وفي أوصال جسمه وجعل يرتعد من الخوف وعند ما فتحوا الحجرة وجدوا أنه مات من الرعب. ويذكرني قصة (الجبان) لجي دي موباسان وهي قصة رجل صفع آخر فدعاه المصفوع إلى المبارزة فاشترط الصافع ان لا تقف المبارزة إلاَّ بعد جرح أو موت أحدهما. ولكنه عندما خلا بنفسه في بيته، وجد جسمه يرتعد ويرتعش وخاف ان يغمى عليه أمام أصدقائه وخصومه

اضاعة الخوف فيفتضح ويُعرف بالجبن ويلحقه العار فانتحر خوفاً من ظهور خوفه ودلالاته أمام الناس . وأتذكر أيضاً ما يسمى بالفزع الأكبر أيام الثورة الفرنسية إذ أن الفزع قد يعم في عهد الثورات ، وقد يكون مُعيناً عليها فكثيراً ما يقسو المرء من الخوف . ومن عجائب الخوف خوف عبد الله بن الزبير وهو من الشجعان . ولكنه لما رأى ان الغلبة ستكون لجند بني أمية استشار أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات الطبيين في أن يستسلم. فقالت له عش كريماً أو مت كريماً وحثّته على القتال. فقال إنه يخشى إن يُمَثَّل به أعداؤه بعد موته . فقالت لا يضير الشاة سلخها بعد موتها . والواقع ان الانسان كثيراً ما يغم نفسه بأمور وحوادث مختلفة قد تحدث بعد موته . ومن الشجاعة حقاً قول الأستاذ هالدين الانجليزي في كتابه (تفاوت الناس) انه اتفق وزوجه ان تُهدَى جُثَّتاهما بعد موتهما المستشفى للتشريح كي يستفيد البحث العلمي وتستفيد الانسانية . وهذا يذكرني قصة اهداء الشَّنفَري الشاعر جثته بعد موته للوحش كي تنعم بأكلها وذلك في قوله :

إذا قطعوا رأسي وفي الرأس أكثري وغُودر عند المُلتَقى ثمَّ سائري
فلا تدفنوني إنَّ دفني مُحَرَّمٌ عليكم ولكنْ أبشري أم عامر

ويعني بأم عامر الضبع ـ ومن فكاهات الخوف قصة الجبان الذي يدَّعي الشجاعة مثل قصة ترترن التَّرَسكوني لمؤلفها ألفونس دوديه. وكان ترترن يدعي مغالبة الليوث والوحوش مع أنه كان يخشى حتى الأسفار وركوب البحر . ولكن من الأغاليط المألوفة أن يحسب الناس كل من يدَّعي الشجاعة ويتوعد كي يخيف ، جباناً . حقيقة إن بعض الناس يخفي جبنه وخوفه بادعاء الشجاعة، ولكن المفاخرة بها قد تكون مفاخرة بحق كما أثبت شارلز لامب في رسائل (الأغاليط المشهورة) ولامبروز بيرس قصص في الخوف من الجثث والأفاعي المحنطة خوفاً أدى الى الهلاك .

(٧) قد يكون قبول المرء للأكاذيب من السذاجة الفطرية التي تفترض الصدق في نفس محدثها . وقد يكون ذلك القبول من الجهل وهو عيب العامة . أما عيبي فهو عيب المتعلمين . فقد أبالغ في تكذيب ما لم يقم دليل حسي على صدقه ولا أكتفي بأن أقول أنه لم يقم دليل حسي على صدقه ، بل أقطع ببطلانه واستحالة كونه ، كأن الكون يقاس على كفاءة الانسان وهو

غير محدود بحدود فكره ونفسه . وقد فطنتني الخبرة الى أن العادة لا المعرفة هي التي تزيل غرابة الأمور . ولولا اعتياد الانسان الحقائق المألوفة لقطع ببطلان ما لم يتعوَّد منها . وهذا يذكرني الدكتور صموئيل جونسون وهو أديب أريب ولكنه كان يكذب البحارة بعنف إذا حدَّثوه عن بعض الظاهرات الطبيعية التي تحدث في البحار مثل ارتفاع مياه البحر في شكل نافورة في بعض مناطق الضغط الجوي المنخفض . وكان يقطع ببطلان قولهم ويعده من الأساطير والخرافات التي أولع بها أهل الرحلات من قديم الزمن . ولكن من غرائب خصال النفوس أنه كان يسرع الى تصديق أمور أخرى مما يصعب اثباته . وقد يكون للخداع فيه سبيل . وقال مونتاني . (ينبغي للانسان أن يعرف أن الحياة والعالم كتاب لا آخر له) أي لا يستطيع تقصيهما بالمعرفة .

(٨) قد تتبدَّل وتتغير صفات النفوس الغالبة حسب أحوال الحياة ودوافعها . فان نيرون الأمبراطور الروماني الذي اشتهر بالطغيان وسفك الدماء كان في أيام شبابه قد طُلب منه امضاء حكم الاعدام على أحد الأشقياء . فقال آسفاً : وددت لو اني لم أتعلم الكتابة — وهذا يذكرني روبسبيير زعيم الثورة الفرنسية الكبرى فانه كان في صباه قاضياً في محكمة أراس ولكنه استقال من منصبه كي لا يمضي حكم الاعدام في رجل . وبعد ذلك كان خطيب حكم الارهاب وأرغم النواب على اقرار قانون يجيز للمحكمة الثورية أن تحكم بالاعدام من غير سماع أقوال المتهم أو شهوده أو دفاع عنه ومن غير مناقشته ، وهو الذي كان في صباه يرفض الحكم بالاعدام ، حتى اعدام المعترف بجرمه أو الذي محصت الأدلة وثبت جرمه بعد البحث ومع ضمانة العدالة في المحاكمة .

(٩) اختلاف الميول النفسية والنزعات في النفس الواحدة ، حمل بعض المفكرين على أن يروا في كل انسان أكثر من نفس واحدة . ولكن المفكرين الحديثين يقولون شخصيات لا نفوساً . وقد لوحظ انفصال الشخصيات في النفس الواحدة في أوقات مختلفة بسبب حوادث أو أمراض . وعلى هذه الحقيقة أسس ستيفنسون القصصي البريطاني قصته المسماة (الدكتور جيكل والمستر هايد) والأول من أهل الخير والثاني من أهل الشر والاجرام .

(١٠) من أصعب الصعاب أن نقطع بأننا قد عرفنا الحق الذي لا شك فيه ما دامت

حواسنا وملكاتنا ، وما دام غيرنا من الناس كلٌّ يعدو عمداً أو سهواً أو جهلاً أو عجزاً عما هو أساس حكمنا مما قد يجافي الصواب. ومن أجل ذلك ينبغي المرء أن لا يتشبث برأي كل التشبث . وعلى ذكر هذا القول أذكر كلمة لاوليفر كرومويل معناها أن من رحمة الايمان وصحته ، أن يؤمن المرء بأنه قد يخطىء ، ولكن حتى هذا الايمان بالخطأ لا يعصم المرء من الخطأ والتشبث به. إذ أن صاحبه لا يراه خطأ .

إذا كان تنوع حجج التفكير النظري يدعو الى الحيرة والارتباك ، فان تنوع تجارب الخبرة قد يدعو الى حيرة مثلها، لأن الأمور والأحوال المتشابهة مهما عظم أوجه الشبه بينها، لابد من أن يكون بينها من الاختلاف ما يتطلب نوعاً خاصاً من أحكام الخبرة ، فلا يصح الاعتماد كل الاعتماد على حكم الخبرة والتجربة في أمر من الأمور لأنه مشابه مشابهة قليلة أو كبيرة لأمر آخر خبرناه . فقد يقتضي الاختلاف القليل مسلكاً آخر من مسالك العمل وحكماً آخر من أحكام العقل. ولكن الناس كثيراً ما يكتفون بالمشابهة ويتخذونها نبراساً وهادياً ودليلاً فيخطئون من حيث لا يفطنون . على أن أحكام الخبرة قابلة للزلل الذي ينشأ بسبب أهواء النفس فشأنها في ذلك شأن التفكير النظري . وهم يحسبون أن الخبرة عاصمة منه لأنها أمر عملي — وهذا يذكرني قول أحد المفكرين الذي قال إن خطأ الخبرة بسبب الأهواء قد يكون حتى في تجارب معامل البحث الكيميائي .

(١٢) قلما يتفق اثنان في الحكم على أمر من الأمور اتفاقاً تاماً مهما تشابه رأيهما — ولو أن حادثاً حدث في الطريق ورآه كثير من الناس ثم طُلب منهم وصفه لاختلفوا في تفاصيل المرئيات حتى ليظن المرء أن بعضهم يكذب عمداً ، ولكن الاختلاف قد يكون من غير كذب متعمد . لأن نظر كل إنسان الى الأمور يختلف عن نظر غيره بعض الاختلاف إلا إذا كان هناك إيحاء ورغبة في الاتفاق لأرَبٍ ما

(١٣) اتفق أن رجلاً اتهم بالقتل وشبَّهت بعض القرائن ولبَّست الحقيقة ، فحكمت المحكمة عليه بالاعدام . ثم ضُبط رجل آخر واعترف أنه جنى تلك الجناية وظهرت أدلة ذلك . فأبت المحكمة أن تعيد النظر في الحكم على الرجل الأول احتراماً لقداسة القوانين والشرائع. وهذه سُنَّة لا تزال بعض الدول المتحضرة تأخذ بها. وكثيراً ما يفعل الناس ذلك

ويعملون بهذه السُّنة في حياتهم الخاصة — وهذا يذكرني قصة تحكى عن كاليجيولا الامبراطور الروماني إذ حكم على رجل بالإعدام. ثم ظهر أنه لم يجن ما نُسب إليه. فقال إنه إنسان فاذا لم يكن قد جنى هذه الجناية فلا بدَّ أن يكون قد جنى جناية أُخرى. فاقتلوه وهذا من عنت القضاء وجنون الحاكم ولكن للناس ما يشابه هذه الصفة.

(١٤) إدعاء المرء أنه يعرف نفسه دليل على أنه يجهلها. فإن المرء يسبر غور النفس ويجد بعد طول ممارسته للبحث فيها أن الذي يعرفه من أمورها وأحوالها قليل جدًّا اذا قيس بما لا يعرف

(١٥) الناس يكرهون النقد وهذا بالرغم من ادعائهم ضد ذلك وقد يُلِحّ إنسان على صديق ويدعوه الى نقد نفسه أو أعماله أو أقواله ويدعي انه يحب الصراحة ويكره التملق فإذا خُدع صديقه بهذا الإدعاء ونقد أعماله أو أقواله أو صفاته وجد منه نفوراً أو عداءً أو حقداً أو غيظاً، وكلٌّ منا يلوم الحكام لحبهم التملق، وكلٌّ منا يود أن يحاط بالمتملقين - إلاَّ إذا خشينا من تملقهم أن يراد به الاحتيال لنيل ما لا نريد أن نجود به.

(١٦) ينبغي للانسان أن يزداد قوة بمعرفة سقطات عقله ونفسه وأن يكون مثل الجنيّ في أساطير الاغريق الذي قيل إن أُمَّه الارض وإنه كان كلما صُرِع وغُلب ومسَّ جسمه الأرض ازداد قوة ونشاطاً وقدرة على الكفاح.

(١٧) ينبغي لكل انسان أن لا يحكم على أعماله بظاهر ما يؤيدها به من حجج. وأن يُعوِّد نفسه على أن يبحث عما وراء ذلك من أسباب مستترة ولا يطمئن حتى يصير ذلك البحث عادة تؤاتيه من تلقاء نفسها. ولكن ينبغي مع ذلك أن يعرف أن هذا البحث مطلب عسير، إذ أن النفس كثيراً ما تَضلِّلُ صاحبها فيه بوسائل مختلفة.

(١٨) إن الانسان الذي يتطلع الى بلوغ منزلة كمال الملائكة قد تتدلّى به غرائزه في سبيل هذا المطلب وتهوي به طباعه في العمل للوصول الى منزلة الأبرار حتى يصير في حضيض الشياطين أو في رتبة البهائم أو الوحوش وهو لا يدري بل يُخيَّل له أنه يعمل للخير. فينبغي أن يحذر المرء ذلك.

(١٩) العادة تشكل الحياة كما تهوي، فكأنما هي خمرة الساحرة سيرسية التي يحكى عنها

في أساطير الأغريق والتي كانت تسقي من تستهويهم خمرة تُحيلهم قِردَةً أو خنازير أو وحوشاً ضارية أو حيوانات مُستَذَلَّة. فليحذر المرء العادة إذا استطاع الحذر منها والتحكُّم فيها بدل تحكمها فيه، وهي في أول أمرها أسلس قياداً للمرء وأضعف، فاذا تأصَّلَتْ ركبته وغلبته على نفسه. وقد يكون تأصلها إما بسبب ان صاحبها يجهل عواقبها ويستلذ مواقعتها ومؤاتاتها، وإما من كسل الرأي والجسم. واليأسُ من التغلب عليها يؤدي إلى تحكمها والى ازدياد سوء عواقبها.

(٢٠) الموسيقى على لذتها إنما هي إئتلاف نغمات مختلفة الأصوات والمخارج والوقع ومع ذلك يستطيع صاحبها ان يؤلف منها أنغاماً عذبة مقبولة إذا كان ممن يجيد فن الموسيقى. وكذلك من يجيد فن الحياة يستطيع أن يستخدم أحوالها المختلفة من سرور وحزن ونعمة وشقاء وغنى وفقر، كي يؤلف منها فنًّا مؤتلف النغمات عذباً مقبولاً.

(٢١) مقاساة الآلام والخطوب هي في الخوف من مقاساة الآلام والخطوب. فان المرء بهذا الخوف يُقبِلُ على ما يخاف كبعض الحيوانات الضعيفة التي يقال إنها اذا تملَّكها الذعر كل التملك تُقبل على الوحوش التي تفترسها.

(٢٢) كما ان علم الطب مؤسس على التجارب فعلم الحياة أيضاً مؤسس على التجارب ولا صلاح لها إلاَّ بها. – ولكن بعض الناس خلقت لهم غرائز وطبائع يعرفون بها طرق النجاح والصواب وان قلت تجاربهم، كما ان بعضهم لا ينتفع بكثرة تجاربه كالملاَّح الذي يطوف العالم فتحسب ان أسفاره قد جعلته خبيراً حكيماً عاقلاً عالماً. ولكنه قد يرجع من أسفاره وهو جاهل غبي كما كان قبلها، ولم تفده تجاربه ومشاهداته عقلاً أو علماً.

(٢٣) لا يمتاز الحق على الباطل بأن الحق من حقه أن يقال في كل زمان ومكان فقد يكون قول الحق مؤذياً للناس مُضرًّا بالعدل أو قد يكون قوله لا طائل تحته ولا فائدة إلا العناد الذي يجر الى خبث النفس والحقد والمهاترة، أو قد يكون قول الحق كأنه لم يُقَل من صمم السامع. ولكن متى وجد الانسان فرصة مؤاتية وزماناً موافقاً واعتزم ان يتكلم وجب عليه ان لا يتعدَّى الحق وان لا يتخطَّى الصدق اذا وجد ان قوله غير مُضرٍّ بالعدل

والخير. فلو ان رجلاً فرّ من مجرم حتى غاب عنه ورأيت الطريق التي سلكها وسألك المجرم ان تدله عليها كي يقتله، ما كان من العدل والخير ان تخبره، ولهذا المثل أشباه في الحياة كثيرة.

(٢٤) كثيراً ما يحكم الناس ويتخذون رأياً في أمر من الأمور قبل تمام المعرفة وقبل اتخاذ الأهبة للحكم وقبل الاستعداد حتى لا يفوتهم شيء من صواب أمره. وهذه عادة شائعة لها أسباب كثيرة مثل الكسل أو قلة الاكتراث والاهتمام بالحق أو الخوف من إرهاق النفس وكدها بالتقصي والتمحيص أو الاكتفاء برأي الغير وحكمه اعتماداً على أنه قد كفى نفسه مؤونة البحث وربما لم يكن قد فعل، كما لم يفعل من اعتمد على رأيه الى آخر ما هناك من الأسباب العديدة.

(٢٥) إن الانسان يخلق لنفسه ضرورات. فان كثيراً من الأشياء والأمور لا تصير ضرورية إلا لأن الانسان ألفها فاحتاج اليها، ألا ترى أن الثياب ما كانت ضرورية قبل أن اتخذها الانسان ورققت بشرته وأعصابه واحساسه، فاذا حاول أن يستغني عنها بعد ذلك هلك. ولكن قد يستغني عنها من لم يتعوّدها من القبائل. وقد ذكر هيردوت المؤرخ أن جماجم قدماء المصريين كانت أكثر صلابة من جماجم الفرس لأن قدماء المصريين تعوّدوا الاقلال من غطاء الرأس أو الاستغناء عنه، وتعوّد الفرس غطاء الرأس الثقيل، فالعادة تشكل الجسم وتتحكم فيه كما تتحكم العادة أيضاً في النفوس والأمور النفسية. والمؤرخون يقولون إن اتخاذ الانسان الثياب كان بسبب عصر الثلج الذي زحف فيه الثلج جنوباً وبرد فيه الجو فاذا صح ذلك كانت الضرورة هي التي دعت الى الحاجة لاثياب واتخاذها من جلود الحيوانات وفروها قبل أن يتعلم الانسان الغزل والنسيج. ولكن بعض القبائل حتى في الأقاليم الباردة لا تزال تعيش شبه عارية أو كان ذلك الى عهد قريب.

(٢٦) ليست عظمة الأمور وقيمتها هي التي تدعو الى البحث عن أسبابها بل جدتها أو مفاجأتها أو غرابتها هي التي تدعو الى ذلك وتغري النفس بالتعلق والشغف بها وباستطلاع أمرها. وهذا يصدق في اكثر الناس إلا من خصص حياته لدراسة أمر هام. ومن أجل ذلك جاءت المخترعات والمستكشفات القديمة عفواً كالنار مثلاً — ويقال ان البنسلين في

عصرنا كشف عفواً على أن غرابة الأمور لا تمنع من أن تكون لها قيمة وعظمة .

(٢٧) من الخطأ وقلة الانصاف أن نحتقر بعض الأعمال الضرورية لأنها ممضة متعبة كريهة مع أن الحياة لا تستقيم الاّ بها فضرورة العمل من مقاييس قيمته ، والسعيد من تطاوعه نفسه على أن يستنبط سروراً في كل عمل ضروري يعمله مهما كان كريهاً .

(٢٨) العقل يعرف بملكاته فحيث توجد يوجد العقل . ومن ملكات العقل الحافظة والذاكرة وقياس الأمور والتهدي به الى الصواب والى الرجوع عن الخطأ وهذه ملكات نجدها في الحيوانات والطيور . ومن بحث في حياتها وعرف صفاتها من وفاء وتذكر للجميل وحفظ ما تستوعبه حواسها ومن التأتي للانتقام ممن أساء اليها ومن شهامة أو خبث تعد لها الوسائل وتدبر الأمور ومن حزن أو سرور ومن ندم أو توبة ومن مكر أو دعابة ومن تهدّ الى الصواب بعد الخطأ ومن نظر الى ما تستطيع أن تعمله إما بتدريب أو بغير تدريب لا يستطيع أن ينكر انها عندها قوة الادراك وحفظ ما تدركه وعندها التذكر والاستنتاج. وقد أطال موتناني في ذكر شواهد ذلك وقصصه . وذكر انها ما كانت تستطيع كل ذلك لولا ملكات العقل المذكورة التي نسبها اليها . وللرحالة هانز كودنوف حجج وقصص مثلها في كتاب (جيراني الافريقيون) . ولجاك لندن القصصي الأميركي ايضاً .

(٢٩) لو كان للكذب وجه واحد فربما استطاع الانسان معرفته ، ولكن الأكاذيب تختلط وتتفاعل فتنشأ عنها أكاذيب أخرى مختلفة الوجوه والأنواع والأشكال . فلا تستطاع معرفة الباطل بسبب هذا التفاعل . وقد يكون الكذب شبيهاً بالحق فيخدع المرء وجه الشبه أو قد يكون في الكذب شيء من الحق ولكن ما أضيف إليه من الكذب والباطل يخرجه من حد الحق وقد يجعله أبلغ في باب الكذب .

(٣٠) من الخطأ أن يحتقر المتعلق بأمور الروح أو صفات العقل جسمه اكراماً لنفسه . فانه لا كرامة للنفس من غير كرامة الجسم والاهتمام بأموره .

ع . ش (البحث بقية)

سياسة الارشاد الاجتماعى

وعلى أي أساس يجب أن تقوم

— ٥ —

تتمة الدراسة السيكولوجية

ما من شيء أشقى الأمم وأضناها ومال بها إلى الانحطاط أكثر من وقت الفراغ إذا هو تُرِكَ لاستنبات الشر والسوء والشهوات الوضيعة . وما من واجب أشد أخذاً بمخنق الحاكمين من محاربة البطالة والعطلة ومغرياتها السيئة بشتى الطرق ، وأخذ الناس بالاقناع ، والحسنى ليستغلوا أوقات فراغهم في المفيد والمجدي .

ولا يستطيع منكر أن ينكر أن الطبقات الدنيا من الشعب ، التي هي أحوج ما تكون إلى الإرشاد والدعاية الاجتماعية مهما يبهظ عاتقها من عمل آليّ أو يدوي ، قد تقضّي فيه ساعات النهار كادحة ، فأنها ستجد أمامها بعد ذلك فراغاً كبيراً من الوقت لا تعرف كيف تستنفده ولا كيف تفيد منه بما يعود عليها بصحة الجسم والعقل معاً ، وعلى بيئتها ومستواها الاجتماعي بالخير والرقي والنفع بصورة نحسها ونلمسها لو أننا قسناها بمقاييسها الصحيحة .

ولا يتوهمنّ أحدٌ أن مهمة إرشاد هذه الطبقة العديد أفرادها ، وهم مع الأسف الشديد قد غلبت عليهم أميةٌ مطبقة ، أمرٌ من السهولة بمكان ، أو أن أيما سياسة ترسم حينما اتفق لتعالج هذه الناحية بالذات مغفورة أخطاؤها وعثراتها ، ما دامت تستهدف مجرد الترفيه عن أفراد هذه الطبقة ، وتقصد إلى إرشادهم بأساليب تحاول أن تكون علمية أو فنية ، ولكن الواقع الذي لا مراء فيه أن رسم خطوط هذه السياسة ودراسة مناهجها المفصلة بقصد تحديد الأهداف المقصودة من ورائها ، هي في الدرجة الأولى من الخطورة والأهمية ، وهي التي يجب أن تشغل «المرشد الاجتماعي» دائماً ولا سيما في بيئة اصطلحت عليها الأدواء الاجتماعية

الوبيلة ، مقرونة بأنماط شتى من العادات والتقاليد القبيحة أو المستنكرة عرفاً وشرعاً !

فنحن لا تهمنا قيمة المنهج العلمي الذي نستهديه في حَبْكْ وتنظيم وسائل الإرشاد بقدر ما تهمنا الناحية السيكولوجية ذات الأثر المباشر في إحداث الانفعالات الشعورية المطلوبة ، ومع ذلك فلن يتم لنا وجه الافادة من هذه الناحية ، الأكيد نَفْعُها ، إلاَّ إذا درسنا بصورة مُنظمة ، ملامح وخصائص هذه الأوساط الدنيا سواء في الريف أو في الحضر ودرسنا كذلك حاجات ومطالب السواد الأعظم من جماهير الشعب المصري في عامة نواحي المملكة ، عندئذٍ يجد المرشد الاجتماعي أنه على بينة من هدفه وعلى ثقة من سلامة اتجاهه واستقامة جادته .

وهنا نستشعر مرة أخرى قيمة « المراكز الاجتماعية » كعامل هام في دراسة الطبيعة « السيكولوجية » للوسط أو البيئة التي وجد المركز الاجتماعي من أجل نفعها وخدمتها ، إذ الواقع أن ما سيؤديه المركز الاجتماعي المزود بـ « الاخصائي السيكولوجي العملي » ـ « Psychologue Pratique » لن يقل من حيث قيمته وأثره ، عن النواحي الصحية والاجتماعية والفنية التي تستهدفها هذه المراكز بأخصائيها المتمكّنين في هذه النواحي جميعاً .

ولسنا في مقام الافاضة العلمية المشعَّبة لمناهج هذه الدراسة ، ويكفينا أن نقول إنها ستعتمد كل الاعتماد على مناهج علم النفس التجريبي المعني بنفسية الفرد ونفسية الجماعة ، كما ستعتمد على علم الاقتصاد الاجتماعي وعلم الصحة العقلية ، فضلاً عن الأسس التجريبية للبيداجوجيا الاجتماعية كعلم وفن ، وفي حدود ما تقتضيه مهمة إرشاد هذه الجماهير ، على تفاوت حظوظها من الاستنارة ، من الاستعانة بأساليب الارشاد العصرية ، التي هي في ذات الوقت أساليب « سيكولوجية » للتوجيه والتثقيف والصقل .

وللتدليل على صحة ما سقنا هذا الحديث إليه ، نذكر مثلاً ان السينما ، وقد أصبحت اليوم من أهم وسائل الدعاية في العالم ، تعد وسيلة محققة النفع والأثر ، من ناحية إحداث الانفعال الشعوري المطلوب الذي يعد بدوره ذريعة إلى الاقناع العقلي وتحقيق التجانس الفكري تدريجاً بين أفراد الوسط الاجتماعي المطلوب إرشاده وتهيئته لتقبل فكرة كل إصلاح اجتماعي جديد . فرُبَّ شريط سينمائي قصير من الأشرطة التعليمية أو التثقيفية التي

أُحْسِنَ اختيارها واخراجها ، أجدى أثراً من مجرد محاضرة أو حديث يلقى ليذهب بعد ذلك نسياً منسيًّا .

ولنتصوَّر مثلاً أننا نريد أن نَدْعُوَ إلى موضوع اجتماعي معين كتوحيد الزي — وهي مسألة كثيراً ما أُثيرت في أوقات ومناسبات مختلفة — أفلا نرى بداهة ، وبمجرد انفعالنا الشعوري ، نحن كشعراء ، بهذه الفكرة ، ان فيلماً قصيراً يعالج الفكرة بصورة لطيفة جذَّابة ويعرض في مختلف أنحاء البلاد (١) ، وخصوصاً لو عُزِّز في فترات دورية بأفلام قصيرة أخرى تعالج ذات الموضوع — يكونَ عندئذٍ أبلغ وقعاً وأعمق أثراً في نفوس الجماهير من عدة أحاديث ومحاضرات تلقى لمحاولة إقناعهم بالمزايا الاجتماعية التي تعود على البلاد وعليهم من « توحيد الزي » ؟

والمسرح ، كوسيلة أخرى من وسائل الارشاد الاجتماعي ذات الأثر النفسي البالغ في نفسيات الجماهير ، له بدوره خطره وأثره العميق في توجيه الشعب . ولا يجمل بنا أن ننسى أنه كان وسيلة التربية الشعبية الوحيدة عند الأثينيين القدماء ، ولقد أجدى على اليقظة الاجتماعية اليونانية في تلك العصور الزاهرة ما لم تجده فلسفات حكمائهم ومفكريهم الأعلام عند محاولتهم تحقيق علم الكمال أو « اليوتوبيا » .

والأمر يتوقف في المسرح أيضاً ، وإلى حدٍّ كبير ، على حسن اختيار القصص التي تعد للتمثيل ، فلا تكون من أنواع التافه الذي لا يهدف الى غرض ما ، بل يجب أن تعالج بعض أمراضنا الاجتماعية التي نشكو منها ، مع العمل على إيجاد عدد كافٍ من المسارح الشعبية الثابتة والمتنقلة ، تستجيب لمطالب الاصلاح الاجتماعي من ناحية ، ولمطالب وروح الطبقات الشعبية المختلفة من ناحية أخرى

وهنا يجب ألاّ نغفل حقيقة نفسية هامة جديرٌ بنا أن نستهديها في وضع اختيار المسرحيات والموضوعات المقدمة لكل من المسرح الشعبي والسينما المتنقلة ، تلك هي ما نلاحظه على سواد الشعب المصري من أنه حاضر الملل سريع التحوُّل زاهد في الاطلاع والتعمق واستخلاص المعلومات من المقدمات الطويلة الخ .

---

(١) من المفروض ان كل مركز اجتماعي يحتوي على قاعة للعرض السينمائي

فقمين بكل سياسة إرشادية تعني بتوجيهه عن طريق مسايرتهـا أولاً لطبيعته ، أن تحاول فهم هذه الطبيعة وميولها ومنازع أهوائها وهواياتها كي توفق في استخدام هاتين الوسيلتين بأسلوب ناجح لا يضجر هذه « الطبيعة » ولا يُبلِّدُ من ناحية أخرى إحساسها واستعدادها للاستجابة والتأثر عن اقتناع وفهم .

وعندي ، وأنا في معرض هـذه الدراسة النفسية من ناحية القيم الشعورية التي نـعني بتحويلها الى مؤثرات حسية ومعنوية تجدي في نشر وإذاعة الأفكار الاجتماعيـة الصالحة بين عامة أفراد المجتمع المصري ، أن الحكم على قيمة « المؤثر » رهن بمدى خبرة وكفاية من نيطت به مهمة الحـكم ، وخوّلت له سلطة اختيـار الموضوعات المناسبة ذات الوقع العميق والأثر البعيد في إقناع أبناء الوسط المراد إصلاحه ورفع مستواه العقلي والمعنوي عن طريق الارشاد . أما ترك الأمر فوضى أو جعله في أيدي لجنة يختار أعضاؤها حيثما اتفق ، أو ممن تغلب عليهم النزعة الديوانيـة البيروقراطية » لا الـكفاية العلميـة ، فهذا ما يؤدي بكل سـياسة إرشادية ، مهما استعانت بأحدث آلات السينما وأوفى معدات المسرح وادارته ، الى فشل ذريع وافلاس أكيد وضياع تام لما تتكبده الدولة من نفقات طائلة تنفق في هذا السبيل !

ولا شك أن محاولة دراسة الأساليب والطرق المتبعة في بعض البلاد الأجنبية ، وبخاصة انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية اللتين أتاحتا لنـا خلال الحرب العالميـة الأخيرة مشاهدة نماذج من أفلامهما الاجتماعية والثقافية ، سيعين « اللجنة » أو « اللجان » التي ستعنى بهذا الموضوع الهام في وزارة الشؤون الاجتماعية إعانة تذكر ، بل إني لأذهب الى أبعد من ذلك فأقرر أن في الامكان اختيار المناسب الملائم لعقلياتنا ولظروف مستوانا الاجتماعي من هذه الأفلام ، وترجمتها الى اللغة العربية بطريقة « الدوبلاج » ثم الاستعانة بمذيع خاص من هؤلاء الخبراء السيكولوجيين والاجتماعيين تكون مهمته التعليق بصورة أخاذة ومشوقة على حوادث الاشرطة المعروضة ، وذلك في أثناء عرضها على جمهور النظارة .

ويسرني أن أذكر في هذا المقام ، أن وزارة الشؤون الاجتماعية قد اهتدت أخيراً الى جهاز سينمائي من نوع معين يمكن بواسطته عرض المناظر منظراً منظراً ، بصورة يمكن معها

التعليق على كل منظر على حدة ليسهل على جمهور « الفلاحين » أو « العمال » سبيل تفهم الموضوعات التي تذيعها وتعرضها هذه الأفلام فينفعل شعورهم بجزئياتها وتتهيأ ملكاتهم العقلية ، التي لم تتثقف بعد ، للتفتح على ما تنطوي عليه من ايحاءات قوية وتوجيهات مقنعة وارشادات تخاطب بأساليبها وجدانهم وشعورهم الباطن قبل أن تخاطب العقل والمنطق على طريقة المعاهد والكليات ؟! .

* * *

والحق أنني لست في حاجة الى الاطالة في تأكيد قيمة « الدراسة النفسية » من حيث خلق وتكييف « المؤثر » النفسي الذي يجب أن تنطوي عليه كل دعوة إرشادية صحيحة نود لها النجاح على طول الخط ، وفيما اخترته من الأمثلة السابقة ، التي سقتها على سبيل التمثيل لا الحصر ، ما يضع نصب أعيننا الحقيقة التالية ، وهي أن سياستنا الارشادية التي تضطلع الحكومة اليوم بأوفى نصيب من أعبائها وتكاليفها ما زالت في حاجة ماسة الى تقعيدها على الأسس والقواعد التي حاولنا شرحها تباعاً فيما سقناه من أحاديث.

وأما شدة حاجتها الى تقعيدها على أساس راكز من هذه الناحية التي سقنا اليها الكلام في هذا المقال ، فأمرٌ لا يحتاج الى طويل مناقشة ، كما أنه أمرٌ لن يتحقق ، كما كررت ذلك مراراً ، بمجرد تأليف « لجنة » أو « لجان » لا تسندها الكفايات الملمة بأصول وظائفها واختصاصاتها العارفة بخطورة الواجب الملقى على عاتقها ، وهنا نحن أولاء إذا كنا في حاجة الى بعث بعوث الى الخارج للتخصص في النواحي التي سقنا إليها الكلام في موضوعاتنا السابقة ، فاننا أحوج ما نكون الى بعوث وبعوث لنمد بها هذا الذي اصطلحنا على تسميته بالـ Psychologie Pratique الذي يكون في مقدوره أن يعطي لموضوعات الارشاد عن طريق السينما والمسرح بل والاذاعة اللاسلكية ، روحها المعبرة ، وقيمها الشعورية المتجاوبة مع نفسيات الطبقات الدنيا من الشعب ، عندئذ نستطيع أن نقول إن لنا سياسة إرشادية غير مرتجلة ، وعندئذ نستطيع أن نؤمل كثيراً من الخير لهذا الوطن العزيز.

جمال الدين حمدي

رئيس قسم الارشاد الاجتماعي بوزارة الشؤون

نظرة في البشرية

وطموح البشر الى السعادة

لاح لي يوماً ملاكٌ في خيالاتي يطيرُ
هو للعاصي نذيرٌ ولذي التقوى بشير
صاح يا سكان هذي الأرض ما هذا الغرور
ملء مسعاكم خداعٌ ملء مجناكم شرور
ذا حسودٌ ذا حقودٌ ذا دنيٌّ ذا غدور
ذاك طاغٍ ذاك زانٍ ذاك زنديقٌ كفور
مع هذا كل مر ماكم صفاء وحبور
كيف ترجون صفاءً وطواياكم كدور
وصفاءُ العيش للفردوس تمثيل صغير
يا أمير اسمع متى تطمع ويا هذا الأجير
إن كنه السعد في الفردوس طهرٌ فسرور
يا بني الأطماع أيٌّ منكم الذاكي الطهور
أعلى ذا الشرط قولوا لكم عزمٌ يدور
ثم ترجون نعيماً هكذا الحمق الكبير
ودليل الحسّ بادٍ ليس في الحسّ قصور
أي ملكٍ وأمير أي ذي عليا استشيروا
أو بني الحقل أو الصنّاع والتجار زوروا
وبذي الخدمة والمنهوك والبطال دوروا
اسألوهم كلهم هل فيهم راضٍ شكور
من ينله الصفو يومٌ تجبهُ الهمُّ شهور

* * *

قد عكسنا كل أمر فاشتكت منا الأمور
عندنا التدليس حذق وعلى الصدق نكير
واغتياب ونميمات بها السهل وعور

ليس يدري غيرها المؤ   نس فينا والسمير
إن حظرناها عليه   فصموتٌ لا يحير
واذا وافى الذي   كنا عليه نستثير
ثالبيه وعلى أعراضه   كنا نغير
حلَّ منا الذّروة العليا   كما يعلو الأمير
هكذا فينا نفاقٌ   طيه الجبن الكثير
ثم ننسى ما اقترفنا   من سفالات تضير
ونرى حقًّا لنا بالكبر   يا بئس الغرور

* * *

لا اختراعٌ لا اكتشافٌ   لا حضاراتٌ تنير
لا علومٌ لا فنون   لا مراياتٌ ودور
لا اختصارات مسا   فات بها هان المسير
لا سياسات حكيما   ت ولا والٍ قدير
كل هذي النعم اخترصت   بشيء لا يضير
عالجت ظاهر أمرٍ   وعلى الباطن سور
وعلى الخبث من البا   طن لم يهجم مغير
نحن ما زلنا كما كنا   بما اعتدنا نسير
حالنا من عهد نوحٍ   هي ويلٌ وثبور
ظلت الفطرة رعناء   وما منها مجير
وضحايانا بحب الذات   جمهورٌ غفير

* * *

لا تقولوا خف من   ويلاتنا الشيء الكثير
وتمدنا وبتنا   في رخا عيش نمور
إن زعمتم أن فضلنا   جدنا الأعلى تجوروا
لا تقولوا العلم أجدى   لا تقولوا العلم نور
اجتدى بالعلم رهطٌ   واشتفى جمعٌ يسير
بعد خير العلم طلاًّ   ويله وبلٌ غزير
هل رحى الهيجا بغير الحرب   ذا العصر تدور
قاطراتٌ دارعاتٌ   طائراتٌ فصقور

وانفجارات جحيم   لا يضاهيها صعير
كم عبادٍ كم بلادٍ   في بلاياها تغور
كم صناعات وآثا   رٍ تولاها الدثور
كم حقول وتجارا   تٍ رأيناها تبور
يلدُ الشهر خطوباً   عجزت عنها العصور
ذاك فضل المدنيا   تِ اغتنمْهُ يا فخور
ذاك نور العلم والفـ   نّ اقتبس يامستنير
واهنَ يا من صاح صار الجوُّ عبداً والبحورُ

* * *

أيها الزاعم سبقاً   مَهُ الى الخلفِ تسيرُ
ناكساً طوراً وطوراً   رجعيًّا تستديرُ
سيئٌ حالاً وأسواء   حالةً منك المصيرُ
ليس يجديك خليلٌ   ليس ينجيك نصير
بل جهاد لهوى النفـ   س على النفس يثور
كلُّ مجدٍ غير مبنيٍّ   على ذا الجهد زورُ
ما قياسُ الآدميين   ذئابٌ ونمورُ
لا ولا جاهٌ عريضٌ   لا ولا مالٌ وفيرُ
إنهم خلقٌ بنبل النفس   ممتاز خطيرُ
نفسهم من ربهم شعـ   لة قدسٍ تستعير
أفسدوها أخمدوها   فهي فحمٌ لا ينيرُ
هل تُرى تسترجع الـ   نورَ وما حان النشور
أم تُرى نبقى على ذا   اللؤم تحوينا القبور
عنصرُ ابن الغاب منه   من تبنّتهُ القصور
أنخل الصنفين نخلاً   فزؤانٌ أو شعير
هكذا الوضع أيكفينا   شذوذٌ وندور
أما نحن طباعاً   خشبٌ بالٍ حقير
اذ صبغناه ادّعينا   أنه عِلقٌ نضير

اللاذقية . سورية   ادوار مرقص

الرائد اللاسلكي

-٢-

سلاح الحلفاء السري

حينما شنّ هتلر إغاراته الجوية الشعواء على بلاد انكلترا ، في اليوم الثامن من شهر أغسطس سنة ١٩٤٠ لم يكن هجومه مفاجأة للانكليز ، بل أمراً متوقعاً ، إذ سبقوا أن استعدوا له الاستعداد الواجب فأنفقوا في سكينة ورويّة كشيمتهم أكثر من ٤٠ مليوناً من الدولارات ، وذلك في إنشاء سلسلة متواصلة الحلقات من أجهزة الرائد اللاسلكي ، لتؤدي ليلاً ونهاراً واجب الحراسة اللازمة لوقاية جزيرتهم ، من كل طائرة كانت تسوّل لقائدها نفسه الدنوّ من البر البريطاني . فشرع الانكليز من سنة ١٩٣٥ في نصب هاتيك الأجهزة . وكانوا حينئذٍ يسمّونها (خط الدفاع الخفيّ) إذ أقاموا خمس محطات للرادار ، على ساحل البحر الشمالي . وفي سنة ١٩٣٨ حينما حمل تشمبرلن مظلته وقصد الى مدينة ميونيك (١) في المانيا ساعياً الى منع نشوب الحرب نخابت مساعيه ورجع بخفي حنين . وكان المهندسون البريطانيون حينذاك يقيمون سرّاً محطة أخرى للرادار . فأصبحت تلك السلسلة مؤلفة من ٢٠ جهازاً . فلما اجتازت الطائرات الحربية النازية البحر الشمالي ، قاصدة الى البلاد البريطانية كانت هذه متأهبة لاستخدام سلاحها السرّي المشار إليه ، للدفاع عن نفسها .

وغدا في وسع البريطانيين وقتئذٍ اكتشاف كل غارةٍ جويةٍ كانت تصوّب نحوهم ، في حينها ، وصدّها بطائراتهم المقاتلة .

وكان البريطانيون في بدء الأمر ، عاجزين عن استطلاع الطائرات المغيرة على بلادهم ، عجزاً طفيفاً ، وذلك لأنها كانت تتوخّى ، إما الهبوط الى أهدافها ، عند دنوّها منها ، ما استطاعت إليه سبيلاً ، وإما جعل إغارتها الجوية مقصورة على ساعات الليل فحسب .

---

(١) هذا هو نطقها الصحيح وفق ما ورد في أحدث المراجع العلمية — لا ميونيخ

واستمرّ الحال على هذا المنوال ، الى شهر سبتمبر ، إذ تلقى الألمان درساً أليماً غالياً إذ خسروا في غارة واحدة ١٨٥ طائرة من أسطولهم الجوّي المهاجم الذي كان مؤلفاً من ٥٠٠ طائرة حربية . وفي شهر نوفمبر غير الألمان خطتهم فعادوا الى الاغارات الليلية . ولكن المهندسون والعلماء البريطانيون كانوا يتوقعون هذا الانقلاب ، فاتخذوا من قبله الاحتياطات الواجبة لاحباطه ، وأعدّوا له أجهزة جديدة متقنة من الرادار . فتبين لهم أن هذا الرائد اللاسلكي الحديث ، أعظم تأثيراً في عمله في أحلك الليالي ، مما كان صنوه القديم ، يؤديه في ريع النهار .

وكان الطراز العتيق منه يدلّ على الطائرة المعادية ، بوساطة الموجة اللاسلكية المرتدة منها ، فيظهر مصدرها العام للطائرات المقاتلة المدافعة التي كانت تعوّل في دفاعها ، على رؤيتها الخاصة وتمييزها الذاتي ، دون سواها ، في الاستدلال على العدو واحباط هجومه المقصود على بلادها .

وبتلك الوسيلة الحديثة ، كان يتسنّى للرقيب الأرضي اختيار أية طائرة نازية ، تظهر صورتها على مرآة جهاز الرائد اللاسلكي ، فيسارع الى اعطاء الارشادات المفصلة ، الى طائرة من المقاتلات التي تحت إمرته ، فتبادر الى تعقبها ، حتى تصبح على بعد يتفاوت بين ميل وثلاثة أميال من خلفها ، وتحتها مباشرة ، في طريقها نفسه ، حيث تفتك بها .

° ° °

وفي أوائل سنة ١٩٤١ رُكّبت أولاً أجهزة الرائد اللاسلكي ، في الطائرات المقاتلة الليلية ، فتفاقمت خسائر الألمان في فصل الربيع من تلك السنة ، تفاقماً دلّ على مبلغ منافع الأجهزة المشار إليها ، ولا عجب ففي شهر يناير ، كان تدمير طائرة المانية واحدة من قاذفات قنابلهم ، فوق بلاد انكلترا ، يعدّ ظفراً رائعاً تسجله الصحف الانكليزية في صفحاتها بحروف بارزة ، فارتفع هذا الرقم في شهر مارس إذ بلغ ٢٤ قاذفة . ثم زاد في شهر ابريل الى ٥٢ وفي مايو بلغ ١٠٢ قاذفة . وما لبث عدد الاغارات الألمانية على البلاد البريطانية ، أن انخفض وتضاءل كثيراً إذ قرر هتلر حينئذٍ العدول عنها والشروع في مهاجمة بلاد روسيا ، وعلى هذا النمط قُهرت القوات النازية الجوية في الأجواء البريطانية .

(كيف قضى الرائد اللاسلكي على أخطار الغواصات الألمانية) : فصلنا هذه الوسائل تفصيلاً جيداً ، وذلك في المقال المستفيض الذي نشرناه في مقتطف مايو سنة ١٩٤٨ فحسبنا أن نوجز الكلام ههنا على ما فاتنا ذكره هناك ، قصد الاشادة بمنافع هذا الاختراع الرائع فنقول : —

كان الألمان في بدء الحرب العالمية الثانية ، يطمحون الى طرد سفن الأمريكان ، من أرجاء المحيط الأطلنطي كما دحروها شرّ دحر سنة ١٩١٨ في الحرب العالمية الأولى . وذلك بحشد غواصاتهم هناك لمهاجمة سفن الحلفاء . ومما يؤسف عليه ، تمكنهم من تحقيق أملهم في ذلك الشطر الأول من تلك الحرب الطاحنة إذ بلغ المتوسط اليومي لشحنات السفن التي أغرقوها من قوات الحلفاء ١٦٠٠٠ طن واستمرت هذه الحال حتى توسّل الحلفاء بالرائد اللاسلكي إلى اتقاء اخطارها ، كما سيجيء القول : —

كانت الغواصة في غابر الزمن ، تستطيع ليلاً ، الصعود الى سطح الماء ، قصد ملء بطارياتها الكهربائية وتخزين الهواء اللازم لها ، في اسطواناتها ، بمنجاة عن الخطر ، في أغلب الأحيان ، إذ لم يكن في وسع العدوّ استكشافها . فما إن اخترع الرائد اللاسلكي حتى صار ذلك الاستخفاء أثراً بعد عين ، لأن باصرة الرادار لا يخفى عليها أي شيء كان ، سواء أكان في الظلماء أم الضباب ، وإن تكن عاجزة عن اختراق الماء .

* * *

ولا غرو فقد أتيح للبريطانيين ، قبل قيام تلك الحرب الضروس ، اختراع جهاز رادار يُحمل في الجو ، فيستطلع غواصات العدوّ حينما تسبح على سطح الماء . وكان بدء استعماله في سنة ١٩٤١ فتجلّت لهم منافعه إذ ثبت لهم أنه يُمكّنهم من (رؤية) الغواصة على بعد يُربي على عشرة أميال . فاذا أضفنا هذه الطاقة ، الى قدرة الطائرة على قطع مئات الأميال في ساعة ، أصبح في مقدور الطيّار ، بالجمع بين تينك الميزتين ، استطلاع الغواصات في مكامنها .

وما من شك أن الألمان كانوا قد أدركوا من قبل ، خاصة أو اثنتين ، من خواص الرائد اللاسلكي ، وذلك عقب استيلائهم على جهاز من الأجهزة الأمريكية ، فجعلوه نبراساً . وعلى

ضوئه فازوا باختراع طراز لاقط لاسلكي ينبه الغواصة النازية الى الاختفاء في الأغوار حالما يستدل عدوها على مقرها . ولما أيقن مديرو الرادار التابعون للحلفاء ، من استفحال حرب الغواصات النازية ، على أثر اهتداء الحلفاء الى أماكنها على سطح الماء ، عمدوا الى اختراع جهاز جديد آخر ذي موجة تغايرها في القديم . وقضى الحلفاء بضعة أشهر في اختراع الرائد اللاسلكي الجديد المنشود ، فاستعملوه حقبة معينة حتى ادرك الألمان بعد حلول فصل ربيع سنة ١٩٤٣ أن أجهزتهم اللاقطة أصبحت غير صالحة للغاية المقصودة بها . وكان ذلك نتيجة تدمير مائة غواصة من غواصاتهم في زهاء ثلاثة أشهر . إذ وقع ثلثا هذا العدد فريسة للطائرات . وضاق الألمان ذرعاً بحالتهم السيئة فاستحثوا مهرة صناعهم الفنيين لينقذوا الموقف ، فهبَّ هؤلاء لنجدتهم من ورطتهم . وعكفوا على اكتشاف سِرّ الطريقة الغامضة التي اعتقدوا كون الحلفاء استرشدوا بها الى قنص الغواصات النازية . وفي سنة ١٩٤٤ أغرق الحلفاء بقرب ساحل فرنسا ، غواصتين المانيتين كانتا تقلان فوجاً من خبراء الألمان وأجهزتهم . ثم وضعت الحرب أوزارها ، حينما كان الألمان لا يألون جهدهم في استكمال اختراع أنبوب هوائي (هو الرئة الصناعية التي يسمونها بلسانهم شنوركل Schnorkel وقد وصفناها في مقتطف مايو ١٩٤٨ وذلك في مقالنا على وسائل الحلفاء التي استعملوها لهزيمة الغواصات النازية وهي الجهاز الذي يمكن الغواصة من بقائها مغمورة في الماء كما تشاء)(١)

ومن المحقق أن هذه الرئة الصناعية الغائصة لم يكن مستطاعاً للرائد اللاسلكي الاهتداء الى طرفها البارز فوق سطح الماء .

وكان للرائد اللاسلكي نفع خطير الشأن ، في صون قوافل السفن إذ كانت غواصات الألمان في بدء الحرب العالمية الثانية ، تهجم ليلاً ، زرافات ، من كل حدب وصوب ، على قوافل سفن الحلفاء فتدمرها ، ولكن أجهزة الرائد اللاسلكي التي زوّدت بها هاتيك

---

(١) وبعد كتابة ما تقدم جاء في البرقيات العامة في ١٩٤٨/٦/٢٠ من لندن : —
أعلنت وزارة البحرية البريطانية ان مناورة بحرية ستبدأ غداً في المناطق الشمالية الغربية لبريطانيا تشترك فيها وحدات كبيرة من الاسطول البريطاني مع عدد كبير من الغواصات المجهزة بآلات خاصة تسمح لها بالبقاء عدة أسابيع في جوف البحار

السفن فيما بعد حدَّت من تلك المهاجمات، إذ أتيح للرائد اللاسلكي، الاستدلال على الغواصات التي كانت تطفو على سطح الماء، ومقاتلتها بلا صعوبة، ليل نهار.

وبالرائد اللاسلكي تسنَّى أيضاً، حلُّ مشكلة السفن التي كانت تشرد عن قوافلها. وكذلك التي كانت تتلكأ في سيرها أو تضل طريقها ليلاً من دون علم قائد القافلة، فتصير غنيمة باردة للغواصات النازية. وكان قائد القافلة البحرية يتوسل بالرائد اللاسلكي للرقابة على قافلته بأسرها أثناء الليل وأطراف النهار، فيكشف من فوره، عن أية سفينة تحيد عن مسير القافلة.

ولا ننسى في هذا المقام، أن حاملات الطائرات التي كانت تحرس سفن الحلفاء، قد عاونت أجهزة الرائد اللاسلكي معاونة جليلة، على القضاء على غواصات المانيا، قضاء مبرماً، حيث كانت الحاملات المشار اليها تكمل استطلاع الرائد اللاسلكي، الذي كان يشمل آفاق المحيط الاطلنطي.

(الرائد اللاسلكي كسلاح لارشاد قاذفات القنابل): وقد ثبت أيضاً أن الرائد اللاسلكي أفتك سلاح للهجوم. ويؤيد هذا القول، حوادث هجوم القاذفات المتحالفة، على بلاد المانيا. بيد أن الحلفاء لم يظفروا بأمانيهم من هذا القبيل إلاَّ في سنة ١٩٤٣ إذ استطاعوا انتاج ما كانوا يحتاجون اليه من الأجهزة التي اخترعت خاصة للهجوم. وحينئذٍ اقتضى الأمر، ايفاد القوة الجوية الثامنة الى انكلترا. وذلك في أواخر صيف سنة ١٩٤٢ حيث قضى أفرادها فصل الشتاء كله يتدربون على الدروس الصعبة الخاصة بالطيران في أجواء المانيا. وأسفرت النتائج عن كون فرقة من تلك القوة الحربية زودت طائراتها بالرادار، استطاعت قيادة أفواج من الطيارين، بلغ عددهم ٦٠ ضعفاً، في كل غارة جوية شنتها على مدن المانيا.

وكانت أقصى أمانيهم حينئذٍ أن يبصروا المجال الجوي بأسره ابصاراً جيداً في كل وقت ليلاً ونهاراً، مقروناً بتسديد قذائفهم الى أبعد مدى تسديداً صائباً.

«يتبع»

عوض جندي

قصة

صدى أنشودة

الكرمانيول (١)

للكاتبة الفرنسية « ماري ماندرون »

ترجمة الآنسة : نعمت حسني

عند ما جاءت مدام « باريون » للمرة الأولى ، إلى سجن المعبد ، ومعها ملابس الأسرة الملكية ، إذ كلفت بتنظيفها واحضارها الى السجن كل أسبوع ، فانها لم تقو على مغالبة ما شعرت به من الاضطراب ! ولكن كيف ذلك ؟!

ان مدام باريون ، تكره الظَّلَمة الطغاة — من الملوك — وتعلن هذا الشعور الملتهب ، في شجاعة وحماس . . وتنتظر سنوح الفرصة ، حتى تثبت ذلك بأجلى برهان . وها قد سنحت لها الفرصة ، وها هي صحبة حارس السجن ، تصعد الدرج المظلم ، وقد امتلأ قلبها بالتشفي والكراهية . . فاذا ما انتهت الى حجرة السجناء ، طلبت الاذن بالدخول في كثير من العجرفة . ولكن بمجرد ان دخلت الحجرة ، خفضت فجأة من نظراتها الوقحة ، من غير أن تدري لذلك من سبب . . ثم إنها شعرت ان صوت خطواتها مزعج رهيب . . فشت بخفة !

من يكون هذا الرجل ، ذو الجسم الممتلىء والخدين المترهلين ، الذي تراه أمامها . . أيكون الملك ؟ أجل . . انه الملك من غير شك .

كان يرتدي في غير تأنق ، سروالاً من الصوف البنفسجي اللون . . وسترة بنية قد تفككت بعض أزرارها عن عراها ، فظهرت من تحتها صدرة من الحرير المنقوش برسم الأزهار .

---

(١) أنشودة كان يرددها الثورويون في باريس عام ١٧٩٣

وبدت على وجه الملك سمة الوداعة والحلم .. أو ربما كان هذا رمز العظمة الحزينة ، ولبدة المصائب والمحن !

كان لويس السادس عشر ، يجلس على كرسي كبير .. وقد أمسك في يده كتاباً ، وهو يملي منه املاءً على ولده الطفل الجالس الى منضدة أمامه .

ورغم أن هذا الطفل هو وليّ العهد ، فان مدام باريوف ، وهي أم لطفل مثله .. قد انجذب قلبها الى هذا الطفل الجميل الذي تبعثرت جدائل شعره الاشقر الحريري فوق كتفيه . وراح بعضها يتثنى فوق الدفتر . ولكن ما هذا السخف . أيلين قلبها لهذا الطفل ! وهو ابن لويس السادس عشر ؟!

وفي الطرف الآخر من الحجرة ، جلست امرأة ترتدي ثوباً بسيطاً من حرير التافتاه الرمادي اللون . وأمامها طفلة تجلس على كرسي صغير . إنها الملكة ، وقد انهمكت في تعليم ابنتها الحياكة .

كان الهدوء شاملاً . والملك يملي على ولده درس الاملاء ، بنغم واحد متواتر . وفي المسافة ما بين الملك والملكة ، كانت شمس الخريف ترسم على بلاط الحجرة ، في خط مستقيم من نورها الباهت ، خيالاً ضيقاً مستطيلاً للنافذة ذات القضبان الحديدية .

وتريثت مدام باريوف هنيهةً .. ثم أخرجت الثياب الملكية من سلتها ، ووضعتها على منضدة هناك . وكان الحارس الذي أوصلها ، واقفاً ينتظر خروجها عند الباب . ثم لمحته وقد توارى .. ففهمت انه يراقبها . يا للعجب ! أيجول بخاطره أن تلك المرأة التي تلتهب وطنية وحماساً تميل الى هؤلاء القوم ! حقًّا إنه لمنتهى الجنون ! ...

ولكن ما لها تأسف إذ ترى ان الملك تبدو عليه الطيبة ، وسلامة الطوية ! فلو كانت تبدو عليه سمة الخبث والشرّ لاستمرّت نقمته ، وهي في راحة أكثر مما هي الآن .

كانت مدام باريون ، تواظب على الحضور كل أسبوع ، لاحضار الملابس بعد تنظيفها ، الى سجن المعبد .. حيث الأسرة الملكية .. وكانت وهي تؤدي مهمتها هذه تمثل العاملة المجدة المتأنقة .

وكانت دهشتها تتزايد ، وهي ترى تلك المشاهد ، المألوفة في كل أسرة ، تمر أمامها عند

زيارتها لسجن المعبد كل أسبوع . . فاذا هي ليست غريبة كما كانت تتوهم .

وها هي ذي تدخل يوماً، فترى ملك فرنسا وقد وقف بالقرب من النافذة، يتأمل الشمس وهي تميل الى المغيب . وشعر الملك بدخول منظفة الملابس ، فالتفت إليها مبتسماً كأنه رحب بها . . حتى لقد شعرت مدام باريون ، بحاجتها الى البكاء . ترى ما هو السبب في هذا الانفعال ؟ قد يكون الملك ، بهندامه العديم النظام وجسمه الغليظ ، قد ذكرها بزوجها المتوفي !

وأحست منظفة الملابس ، أن قلبها قد انقبض بشكل غريب ، واستولى عليها الحزن العميق ، يوم ان صعد لويس السادس عشر إلى المقصلة .

تغيرت آراء مدام باريون ، فالملك لم يكن بالرجل الشرير ! ولكن الملتفين حوله أشاروا عليه بكل ما هو خطأ . . ولولا ذلك لكان وشعبه على أحسن ما يكون . ثم زوجته ، تلك النمسوية الملعونة . . التي كانت السبب الأقوى فيما حلّ به . . إنها لم تكن تحب الملك زوجها . وهي حقيقة لا يجهلها أحد !

كانوا قد فرّقوا بين ماري انطوانيت وبين طفليها ، بعد إعدام الملك . فنقلوها الى سجن الكونسييرجيري ، حتى لا تفكر في الهرب . . . ويوم أن توجهت مدام باريون ، الى سجن الملكة . بعد هذه الحوادث ، وجدت أمامها امرأة مسكينة . تلبس الثياب السود . وحيدة في سجن مظلم . دخلت منظفة الملابس وكانت ماري انطوانيت ، جالسة إذ ذاك الى منضدة عتيقة وقد استندت اليها بمرفقيها . ووضعت رأسها بين يديها . ولم ترَ مدام باريون ، وجه الملكة ، فقد كان مختفياً وراء يديها النحيلتين . وظهر حول منديل الارملة المبتئسة ، شعرها الذي أصبح ناصع البياض ، بعد موت الملك . . . وعندما دخلت منظفة الملابس ، لم تأتِ الملكة بأقل حركة . ففهمت مدام باريون ، أن ماري انطوانيت ، تبكي وراء يديها الملتحمتين . وشعرت منظفة الملابس ، بنوع من الاحترام ، نحو هذه المرأة الحزينة لاتفهم سرّه . فانسحبت شبه هاربة وهي تمشي على أطراف قدميها .

وظلت مدام باريون ، في خدمة الملكة . وكانت تعرف أن الواجب على من يقتربون من السجناء ، ألاَّ يتكلموا معهم وإلاَّ . . .

لقد تأكد للسيدة باريون ، أنه عمل في منتهى الوحشية . وساءلت نفسها ، أيجيز لهم الشرع ، أن يفرّقوا بين الأم وأولادها ! ... لو كانت هي من اجترؤا عليها بهذه الفعلة . إذن لانشبت فيهم أظافرها، ثم أسنانها.

كانت مدام باريون ، تصحب ولدها أينما ذهبت . حتى إلى سجن الكونسيير جيري فقد كانت شوارع باريس في تلك الآونة ، تسودها الاضطرابات . والقوم يردّدون أنشودة الكرمانيول ، فيرتفع لهيب الثورة عالياً .

كانوا أول الأمر يحجزون ابن مدام باريون،عند بواب السجن. ولكنهم تركوه أخيراً يدخل مع أمه ، حاملاً لها سلة الملابس .

وارتعدت الملكة ، يوم أن رأت ابن منظفة الملابس ، ظهر عليها الألم . ولكنها ما لبثت أن اقتربت من الطفل ، ومسحت على شعره بيدها المرتعشة . كان طفلاً لطيفاً جميلاً، تتجلى النباهة في نظرات عينيه الزرقاوين . لقد لقنوه الدرس ، وحذّروه أن يتكلم مع السيدة ذات الثوب الاسود ـ الملكة ـ ولكن ليس في استطاعتهم أن يمنعوه النظر إليها!. نظر إليها دون خجل ، ولكن بأدب . وكذلك لم يستطيعوا أن يحرّموا عليه الابتسام . فابتسم للملكة . فكان ردها على نظرات الطفل وابتسامته ، أن انعطفت نحوه تقبّل شعره الأشقر ! ...

واضطربت منظفة الملابس ، عندما رأت الملكة تتبعها بنظراتها ، وهي تخرج صحبة ولدها . كانت ماري انطوانيت ، تنظر الى هذه المرأة الشعبية ، وهي ترحل عنها ممسكة بيد ولدها . ولا ريب أنها أحست بشيء من الحسرة .

وأتت مدام باريون ، مع ولدها ، الى سجن الملكة كالعادة . وكان أحد الجنود من حرّاس السجن ، قد داخله الشك في أمر الطفل . فمنعه من الدخول . ولكن بخشونة وقسوة ، حتى جعله يقع فيصطدم بجبهته في زاوية مقعد من المقاعد الخشبية الغليظة . فصرخت الملكة ، كما صرخت مدام باريون نفس صرختها . ثم اندفعتا نحو الطفل بقفزة واحدة ولكن الملكة كانت أسبق . فأنهضته ، وانتزعت من كومة الملابس القريبة منها ، منديلاً جعلته على جبهة الطفل ، وكانت تقطر دماً . ثم ضمته الى صدرها وأخذت تربت على ظهره ، تحاول بذلك أن

تلطف عنه الألم ، ونظرت المرأتان كلٌّ منهما الى أخرى من وراء رأس الطفل ، نظرات عميقة تتكلم عن ظلم الانسان ، وميله للشر ! ثم شعرتا وكأنهما قد ارتبطتا برباط أبدي متين من ذلك اليوم ، وقد منعوا الطفل أن يدخل مع أمه حجرة الملكة . كما أصبحت منظفة الملابس والملكة ، ولهما لغة خاصة تتفاهمان بها . تلك هي لغة العيون . تسألها الملكة بأن ترفع حاجبيها ناظرة إليها في قلق وخوف . وهذا معناه : « كيف حاله ؟ » فترد عليها مدام باريون ، بأن تخفض عينيها في حركة سريعة ، بعد أن تنظر إليها نظرة يظهر فيها الاطمئنان . أي : « أنه بخير » .

وأتت أخيراً ، مدام باريون ، الى الكونسيير جيري وحيدة ، فقد كان ولدها مريضاً . وقالت للحارس بصوتٍ بين العالي والمنخفض ، حتى يكون مسموعاً من الملكة : لقد جئت وحدي ، فولدي مريض !

كان مفروضاً على الملكة ، ألاّ تكلم أحداً . ولم تكن قد خالفت هذا الأمر مطلقاً .. إلاّ أنها سألت مدام باريون ، بصوتٍ خافت بدا فيه القلق : « هل بعثوا بطبيب يعالج الطفل ؟ » وأحست مدام باريون ، ان قلبها يذوب تأثراً وكمداً . وأشارت لها بالنفي !

* * *

كانت مدام باريون ، تجلس بالقرب من سرير ولدها . وقد أصبح لا يغادر الفراش . فتأخذ يديه المحمومتين بين يديها — وهي تفكر في سؤال الملكة . وحنانها واهتمامها بالطفل ! وتأكدت مدام باريون ، ان جميع الأمهات لهنّ شعور واحد . ويعرفنَ كيف يتفاهمنَ فيما بينهنّ . بما في ذلك الملكات . ثم قالت والأسى يمحق فؤادها : « لماذا يريدون قتل هذه المرأة ! » .

أجل ، إن جميع الأمهات يمكن لهنّ التفاهم سويًّا . فعند ما ارتدت مدام باريون ، ثوب الحداد لموت ولدها وأتت بعد ذلك للمرة الأولى ، الى سجن الكونسيير جيري . . وكان الحزن قد أسقمها ، وبدا على وجهها الألم المضني ، وتقرّحت أجفانها من البكاء . فما أن دخلت الى حجرة الملكة ، حتى ركعت هذه في صمتٍ ، أمام أختها في الحزن . وكانت ماري

انطوانيت تركع أمام منظفة الملابس ، والدموع تسيل حارّة فوق خديها !

ويوم أن صعدت ماري انطوانيت ، الى المقصلة . حبست مدام باريون نفسها في منزلها، وهي تقاسي أشد الآلام النفسانية . ومكثت في عزلتها بعض الوقت . ولكنها عدلت عن ذلك . لئلا تتنبه اليها ظنون الجيران . نعم يجب ألا تتجه اليها الشكوك ، وذلك من أجل الطفل ، نزيل سجن المعبد — الذي وكل اليها أخيراً أمر العناية بملابسه . دون اخته الطفلة التي لا تدري عنها شيئاً — ذلك الطفل الذي يعيش في وحدة وبؤس . وقد خيّل اليها وهي المرأة الضعيفة ، أن عليها واجب حمايته بطريقة خفية !

كيف استطاعت هذه المرأة ، أن تجعل أولئك القوم ، المرضى بحب التجسس ، يتركونها تداوم المجيء الى سجن المعبد ، دون أن يهتموا بها أو يلتفتوا اليها ! ذلك انهم رأوا فيها امرأة مسكينة ، قد استبدّ بها الحزن لموت ولدها . فهي تحب العزلة ، ولا تحب أن تتكلم أو تنظر الى أحد ! ولكنها ترى وتسمع كل شيء ولا تفوتها كلمة أو اشارة تتوهم انها قد تمس حياة الطفل .

* * *

ولاحظت مدام باريون ان قلبها يذوب أسىً وحزناً . إن الطفل السجين قد أصبح نحيلاً وزاد شحوبه . كما انه كان يجلس مطأطىء الرأس فوق سريره الصغير . لا يتحرك وقد تدلت ساقاه . وكأنما هو غريق في لجة من الحزن ! وكان بالقرب منه بعض اللعب . ولكنها قديمة ألفها من زمن بعيد . كما أحزنها أنه أصبح قليل الكلام . غير أنها سمعته يوماً يتكلم . كان يتكلم متأوّهاً . وكأنما يخاطب نفسه . ذاكراً « نويل » وهداياه في الأيام الخالية . ثم توسل اليه أن يهديه كتاباً مصوّراً ! لقد وصل الى سمع المسكين أن عيد الميلاد آتٍ بعد قليل !

لقد أقبل نويل ! انهم قطعوا الرقاب ، وغيروا الأوضاع . ولكن ليس في مقدورهم أن يمنعوا صغار الأطفال ، أن ينتظروا مجيء الطفل يسوع عند المدفأة !

كانت مدام باريون ، قد احتفظت بلعب ولدها بعد وفاته ، كذخيرة للذكرى . وكان منها كتاب مصوّر .

لم يتوصل أي انسان ، الى معرفة ما هي الطريقة التي أمكن بها لمدام باريون ، أن تدخل في ساعة متأخرة من ليلة عيد ميلاد المسيح ، الى حجرة ولي ّ العهد السجين . وكان قد وضع حذاءه الصغير في المدخنة سرًّا ، قبل أن ينام . فاذا ما أصبح الصباح ، وجد الطفل ، كتاب الصور فوق حذائه . أما منظفة الملابس . فقد قبض عليها .

لم يكتشفوا شيئاً في الكتاب ، يوجب الريبة . ولكن حوكمت مدام باريون ، أمام محكمة الثورة ، وحكمت بادانتها ، بدعوى انها ارتكبت والطفل سجين المعبد ، جريمة « التواطؤ السري » ولأنها خانت « ثقة الشعب » وعلى ذلك ، فقد حكم عليها بالاعدام . ولم تدافع مدام باريون عن نفسها . فانها كانت تعلم أنهم سوف لا يدركون معنى ما تريد أن تقول . دفاعاً عن نفسها ، ولم تكن كذلك ، لتشعر بالخوف من الموت ، أو بالأسف على الحياة . ولكنها أصبحت قلقة النفس ، حزينة الفؤاد إنها ستترك الطفل السجين ، وحيداً في هذه الحياة ! ...

وعند ما نقلوا مدام باريون ، الى السجن المعد لها ، سألت الجندي الذي كان يقودها من أحد الدهاليز الموصلة الى حجرتها : « بربك ياسيدي : ماذا قال الطفل عندما وجد كتاب الصور ؟ » ولم يكن ذلك الجندي شريراً قاسياً كما كان الآخرون . فأخذته الشفقة من أجل تلك المسكينة . وقال لها بصوت خافت ، وهو يرفع كتفيه : تسألين ماذا قال ! لقد فعل ما تفعله جميع الأطفال : صفق بيديه طرباً . وصاح قائلاً : « ها قد فكر فيّ نويل ! نويل أتى إليّ ! فانهم لم يتمكنوا من أن يمنعوه عني أبداً » . فابتسمت المرأة الشعبية ، وفاض على وجهها البشر والسرور . ثم قالت بعد أن فكرت قليلاً : « إنه ليس بالشيء الكثير ، إذا أنا ضحيت بحياتي في سبيل أن أبعث الفرح في قلب طفل صغير مسكين نبذه الجميع » .

* * *

وها هي ذي تلك المرأة الحقيرة الشأن ، ترتفع بتضحيتها هذه ، وهي لا تعلم ، الى أعلى الرتب العظيمة . فتأخذ مكانها بجانب من قاموا بأشرف التضحيات وأسماها !

نعمت حسني

عازفة الليل

على معزفكِ النشوانِ سرٌّ معلنٌ مكتومْ
لحونٌ في معانيها أماني عاشقٍ محروم
تناجي الليل والشطآن والبدر على الماء
فيهمي الطلُّ مدراراً ، ويجري النفسُ المحموم.

* * *

وفي معزفك النشوان قلبي إذ يناديكِ
إلامَ الدل يا روحي وسري بين أيديكِ ؟
صحا الكونُ ، وهامَ الليلُ في ظلٍّ ولألاء
دعيه الآنَ يستوحي أغاني الشوقِ من فيكِ

* * *

ليالي الصيف هل ننسى مع الأمس أغانيها ؟
وهل لا نرفعُ الكفَّ لنجني من دواليها ؟
وهل لا نملأ الكأس على اللحن بصهباء ...
إذا ما دلت الحسناء والصهباء في فيها ؟

دنا الموعدُ ، والأنغام يا حسناء تدعونا
وهذا العمرُ ساعاتٌ لمن يطويه مفتونا
تعالي نقطع الليلة في سكرٍ واغفاء
ونحيا في تفاهاتٍ كما يحيا المحبونا

* * *

لمن هذا الندى المسكوبُ فوق العشبِ والزهرِ ؟
لمن هذا الشراعُ الحالم الساري على النهر ؟
لمن هذا الجوى المكتومُ كالنارِ بأحشائي ؟
تعالي نترك المعزف لا يشكو على الدهر .

* * *

هي الليلةُ يا روحي ... وننساها اذا شئتِ
وننسى كيف ننساها إذا ما اشتقتُ واشتقتِ
هي الحلمُ الذي يختال في سحر واغراء
إذا ضاعتْ .. تمنى قلبكِ الولهانَ لو جئتِ !

القاهرة

يوسف جبرا

المناعة والتلقيح

يراد بالمناعة ما يملكه الجسم الحيواني أو البشري من القدرة على مقاومة العوامل المرضية بنجاحٍ كافٍ بحيث لا يشعر الشخص أو الحيوان الذي يقال انه ملقَّح، بشيء ما، أو انه يشعر فقط ببعض اضطرابات خفيفة وقتية — في حين أن الشخص غير الملقح يبقى معرَّضاً لاصابات خطيرة بل مميتة.

والمناعة لها من التأثير في حياتنا الصحية ما لا يقدّرهُ الكثيرون منا حق قدرهُ. كيف لا وهي تلك القوة الحيوية الكامنة في أجسادنا التي تمنع عنها عدوى الأمراض الوبائية أو السارية، فتقاوم هذه الأمراض وتعيد الى الجسم حالته الطبيعية. بل هي التي تصد هجمات الجراثيم الفتاكة التي تترقب الفرص السانحة وفترات الضعف فينا لتهاجمنا وتتغلب علينا. ألا ترى حياتنا في نضال دائم ودفاع مستمر لصد غارات تلك الأمراض وما توجهه هذه الينا من سهام قاتلة قوامها حيوانات مجهرية وحشرات مختلفة وبعوض منوّع وماء ملوّث وطعام ضار وهواء فاسد وعادات ذميمة.. وكلها أعداء لا يستهان بها تحاول أن تصلينا حرباً عواناً وتفتك بنا، فكيف نتقي أذاها إن لم تكن فينا مناعة قوية وجسم صحيح مقاوم؟ بل كيف نحذر غوائلها وعدوانها إن لم تكن في دمائنا وسوائل جسمنا كريات دم دفاعية سليمة لتحيط بذلك العدو الداخلي وتقضي عليه في مهده؟

والمناعة نوعان: طبيعية واكتسابية، فالأولى منهما تكون موروثة، والثانية مكتسبة في أثناء الحياة.

١ — المناعة الطبيعية: هي التي تنتقل إلينا بالارث الطبيعي من الأبوين والجدَّين: ككريات دم دفاعية، وغدد افراز سليمة، وأعضاء داخلية صحيحة وأوردة دموية مرنة وبنية متينة. وما المقاومة التي يبديها الانسان أزاء بعض العوامل المرضية إلاّ برهان على وجود مناعة طبيعية عندهُ. وهذه المناعة إما أن تتناول جميع طبقات الحيوانات أو تقتصر

على بعض منها ، أو انها لا تتناول في بعض الظروف الخاصّة إلاّ أشكالاً من نفس النوع . ولنأخذ مثلاً على ذلك الحيوانات المجترة التي لا تتأثر بالرعام Morve إلاّ نادراً — بعكس الخيل التي تصاب بهذا المرض بسهولة كلية . وبنفس السهولة أيضاً تصاب الكلاب بالجمرة الخبيثة ، والدجاج بالكزاز .

اما في باثولوجيا الانسان فالزنوج مثلاً يكونون أقل حساسية بكثير من البيض للاصابة بالملاريا والحمى الصفراء ، بينما السل والجدري يكونان بنوع خاص على الزنوج أنفسهم شديدي الوطأة . وهكذا قل عن الهيضة (الكوليرا) التي تصيب الاوربيين أحياناً ، فهؤلاء يكونون أكثر استعداداً وأسهل تأثراً بها من سكان الهند مثلاً .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ألا نرى دائماً بين السلالة البشرية الواحدة أشخاصاً ذوو مقاومة شديدة أزاء بعض العوامل المرضية ؟ فكل منا قد لاحظ هذه المقاومة إبان انتشار الاوبئة الخطيرة كالهيضة والتيفوس والجدري وغيرها . ولنتصوّر مثلاً شخصان يشربان من وعاء واحد ملوّث بجراثيم الحمّى التيفية ، فيصاب الواحد منهما ويسلم الآخر ، وما ذلك إلاّ لمناعته . وأشخاص آخرون يشربون من مجرى ماء ملوث أيضاً بجراثيم الهيضة ، فيصاب فريق منهم بها ويبقى الفريق الآخر سالماً من كل ضرر . وهكذا قل عن النزلة الوافدة (الانفلونزا) التي إذا ما تفشت يوماً في مدينة أو قرية ، أصيب بها بعض الناس ونجا البعض الآخر نتيجة المناعة الطبيعية عنده ، مع ان الاصابة واحدة والتعرض للعدوى بالداء واحد . وكم من مريض اشتدّ عليه الداء وكاد يورده موارد الهلاك ثم لم يلبث ان زال هذا الخطر عنه لقوة مناعته ! بل كم من عليل أيضاً أصابه ما أصاب الاول وبذل نطس الاطباء أمامه جهودهم ومعارفهم ، ومع ذلك فقد باءت مساعيهم بالفشل وقضى المصاب نحبه لضعف مناعته .

بيد ان هذه المناعة لا تكون بوجه عام مطلقة بل هي تتبدل غالباً بتقدم السن . فجسم الحدث مثلاً بأنسجته التي لا تزال ضعيفة وفي دور النمو يكون أسهل تأثراً وقبولاً لكثير من الامراض التي يقاومها عادة البالغون أو متوسطو السن . وليس هذا فحسب ، بل توجد أيضاً سلسلة من العوامل والاسباب الاخرى ، المتفاوتة الاضرار التي يمكنها أن تبدل من مقاومة

الجسم واضعاف مناعته . فالغذاء غير الكافي ، والجوع والعطش ، والاجهاد العقلي والجسدي ، وتردد الأمراض ، وعدم كفاية اللباس والنور والهواء ، والسكنى في الأماكن غير الصحية ، والتدخين ، والتسممات المزمنة (كالمورفين والكوكائين) ، وخاصة المشروبات الكحولية وأمراض التغذية (داء السكري مثلاً) : هذه الأسباب منفردة كانت أو مجتمعة ، تعمل بدورها على اضعاف المقاومة البدنية وتهيء الجسم لقبول الأمراض . ويساعد على ذلك : الرطوبة ، والنزلات المعدية المعوية ، وتعرض الجسم الفجائي للبرد بعد الحر ، والهموم والأحزان والخوف ولا سيما الخوف من الأمراض . .

٢ — المناعة المكتسبة : الجسم في هذا النوع من المناعة عليه أن يكوّن ويفرز بشغله الخاص مواداً جديدة واقية ضد جراثيم الأمراض الفتاكة التي تدخل فيه ، والمواد المذكورة هي التي تكسب سوائله ودمه قوة ومناعة .

وهنالك أيضاً المناعة الصناعية المعروفة منذ أبعد أزمنة التاريخ ، وقد استعملها أقدم الأطباء كأبقراط وغيره ، ويمكن اكتسابها بطرق خاصة لمقاومة كثيرمن الأمراض ، لا سيما السموم ، فكثير من الشعوب والقبائل المتوحشة ، ومنها قبائل أفريقيا الشرقية ، كانت ولا تزال تستعمل بعض الطرق لاكتساب مناعة تقيها مثلاً من مفعول سمّ العقارب أو سمّ الأفاعي ، ويقوم ذلك بتحضير خلاصة من السم بشكل عجينة لزجة يُفرك بها سطح الجلد بعد شرطه شرطاً خفيفاً ، فيحدث إذ ذاك التهاب في هذا المكان يجد الشخص الملقَّح نفسه من بعده في مأمن من عواقب لسعات هذه الحشرات القتالة .

أما في أيامنا هذه فيمكن للانسان كما هو معلوم أن يكتسب مناعة كافية ضد مختلف الأمراض السارية أو الحادة وذلك بوساطة التلقيح والحقن بمختلف الأمصال واللقاحات والتي منها خاصة المصل المضاد للخناق والكزاز والحمّى التيفية والكوليرا والطاعون والجدري وغيرها . والجسم الملقح في مثل هذه الحالات يبتدىء بتكوين مواد مضادة لسموم هذه الأمراض ووقاية الجسم من جراثيمها .

ولنفرض أننا لقحنا حيواناً لم يكتسب قبلاً أية مناعة صناعية — بكمية كافية من مصل صناعي يُحدث مناعة عنده ، وأننا حقنّا له بعد ذلك مقداراً من سموم جراثيم معينة

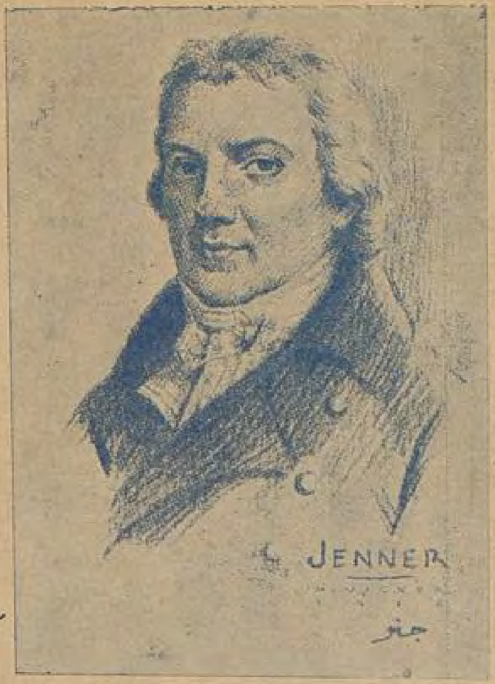

ادورد جنر (١٧٤٩—١٨٢٣)

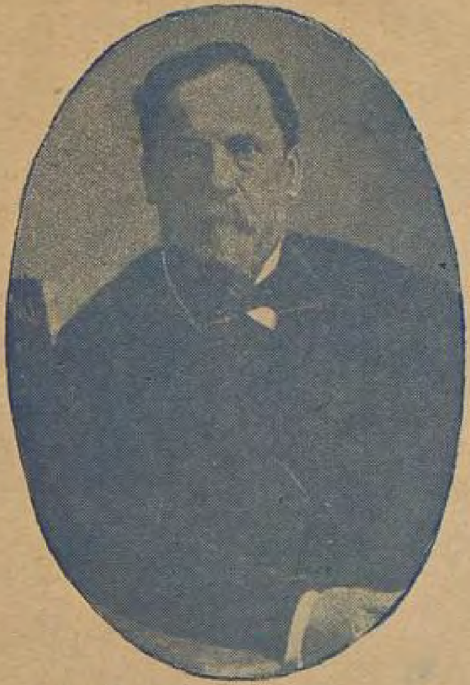

لويس باستور (١٨٢٢ — ١٨٩٥)

فنلاحظ أن هذه السموم تفقد مفعولها كما لو كان الحيوان نفسه عنده مناعة فاعلة Active ضد جراثيم المرض المحقون بها . فهذه المناعة المكتسبة بوساطة المصل تطول مدتها ما دام هذا المصل موجوداً في جسم الحيوان المحقون الذي أجرينا عليه الاختبار ، لكنها تزول بوجه عام بعد مضي بضعة أيام لأن المصل الغريب المحقون يُفرز سريعاً من الجسم كما تفرز جميع المواد التي تدخل في التيار الدموي . فالجسم لم يتدخل والحالة هذه في تكوين المناعة المكتسبة من الحقن بالمادة الواقية المستعملة ، بل تلقاها جاهزة لهذا الغرض ، ويسمّى هذا النوع من المناعة بالمناعة المنفعلة Passive

وقد اكتشف أيضاً العالم الألماني بهرنغ Behring ، وزميله الياباني كيتاساتو Kitasato الحادث الخطير التالي وهو أن المصل الدموي في الحيوانات الملقحة صناعيًّا تجاه سموم الخنّاق أو الكزّاز يكتسب خواص غير موجودة في المصل الطبيعي . فاذا مزجنا جزءاً ضئيلاً من المصل المشار إليه مع مقدار مميت حتماً من تلك السموم ، وحقنّا به حيوانات صحيحة سالمة ، لا نرى هذه تصاب بأي مرض أو اضطراب — بينما الحيوانات الأخرى التي لم تتلقح تجاه تلك السموم ، وحدها أو ممزوجة بالمصل الطبيعي ، تموت فوراً . وهذا ما يؤيد لنا أن مصل الانسان أو الحيوان قد اكتسب بهذا التلقيح خاصة فريدة وهي شل مفعول السموم واكتساب خواص مضادة لها ، وذلك بفضل وجود مواد خاصة تؤلف مع السموم نفسها امتزاجاً أو اختلاطاً لا ضرر منه أصلاً ، ويُطلق على هذه المواد الخاصة اسم « المواد الترياقية » Antitoxine

مدة المناعة الممكن اكتسابها : تختلف هذه المدة باختلاف الطريقة التي تكتسب بها المناعة . ففي الجدري والقرمزية والسعال الديكي والحمّى التيفية تكون مدّة المناعة نحو أربع سنوات ، وقد تمتد أحياناً الى سبع سنوات . أما الحيوانات التي تصاب بالطاعون البقري وذات الرئة والجمرة الخبيثة فانها تكتسب بالشفاء من هذه الأمراض مناعة تقيها أعواماً طويلة . وعلى نقيض ذلك نجد أمراضاً لا تكسب الانسان أية مناعة اذا شفي منها ، مثال ذلك النزلة الوافدة والتهاب الرئة . وأخيراً توجد أنواع أخرى من الأمراض لا تترك عقبها عند المصاب سوى حساسية شديدة للعامل المرضي ، ويدخل في هذه الفئة مثلاً الخناق

(الدفتيريا) والنزلة الوافدة والبنمونيا والحمرة ومما يجدر ذكره هنا هو أن درجة المناعة المكتسبة بالشفاء من هذه الأمراض لا تتناسب دائماً مع وحدة هذه الامراض . وبعبارة أخرى نجد أن أخف الحالات المرضية وأبسطها قد تمر سريعاً أحياناً ودون أن نشعر بها ، ومع ذلك فهي قادرة على اكسابنا مناعة لا تقلّ عن التي نكتسبها من مرض شديد العدوى مصحوب بحمّى عالية وأعراض عمومية ثقيلة

التلقيح ضد الجدري : ويقودنا هذا البحث الى ذكر كلمة عن التلقيح من الجدري . فهذا التلقيح قديم العهد جداً وكان معروفاً عند الصينيين منذ بداية القرن الحادي عشر إنما طريقة اجرائه التي كانت متبعة آنئذٍ في بلادهم ، كما في سيام أيضاً ، تختلف جوهريًّا عما هي عليه اليوم . فقد كانوا يُدخلون قشور بثور الجدري في تجاويف الأنف عند الشخص المُراد تلقيحه . أما في العجم فكانوا يعملون خدوشاً صغيرة على سطح الجلد ويفركونها بقشور جدري مسحوقة . وهكذا قل عن شعوب بلدان الشرق الأقصى التي كانت لها طرقاً خاصة لنفس الغرض

* * *

ولما كانت سنة ١٧٢٤ أتت الى انكلترا سيدة انجليزية تدعى اللادي مونتاج Mantague كانت تقطن الاستانة في ذلك العهد وجلبت معها الى أوروبا الطريقة التي كانت متبعة آنئذٍ في اليونان والتي تقوم بتلقيح أصحاء الأبدان بمطعوم مأخوذ من انسان مصاباً بالداء ، اعتقاداً منهم أنهم لا يسلمون من الداء إلاّ بنفس الداء . والطريقة الآنف ذكرها كانت مستعملة خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر واكتشفت كثيرها بطريق المرض ، لكن ممارستها لم تكن متقنة ثابتة ولا على أساس علمي واضح ، وهذا ما جعل الناس غير متأكدين من نجاحها ، ولذا أهمل شأنها كطرق العلاج الأخرى الكثيرة الناقصة ، حتى إذا جاء الطبيب الانكليزي الخالد الذكر ، ادورد جنر Edward Genner (١٧٤٩ - ١٨٢٣) مكتشف اللقاح الواقي ضد الجدري ، فقوّض الأفكار القديمة المغلوطة وقلبها رأساً على عقب .

ويقترن إسم الطبيب جنّر الذي يدين له العالم اليوم بكثير من الشكر باحدى الحوادث

المهمة في تاريخ التلقيح ضد الجدري . فكثير من الفلاحين كانوا يعرفون أن المطعوم يتوقى الاصابة بداء الجدري . وقد اعتاد الناس في بلوخستان من أزمان طويلة على ارضاع أطفالهم من أبقار مصابة بالجدري حفظاً لهم من الاصابة بهذا المرض . غير أن الطبيب جنر كان أول من عمل على تحضير اللقاح واستعماله فنياً عام ١٧٩٨ ، بعد دروس متواصلة دامت عشرون عاماً ، فوضع بذلك الأسس المتينة الاولى لمعارفنا الحالية عن قوانين المناعة ونواميسها .

* * *

ومما تقدم يتبين لنا أنه قبل مجيء ادورد جنر كانوا يحاولون أن يكسبوا الجسم مناعة بواسطة مواد سامة جداً كثيراً ما كانت تؤدي الى الوفاة . غير أن جنر لم يكن يستعمل للتلقيح سوى السائل الموجود في البثور الجدرية ، وهذا السائل لا يسبب أبداً عند الانسان عدوى جدرية خطيرة ، بل دمامل وبثور فقط في المكان الملقح لا تلبث أن تشفى سريعاً دون إحداث اضطرابات هامة في الجسم لأن اللقاح المستعمل حسب طريقة جنر لا تتخلله مادة سامة ، إنما مادة جدرية مخففة ، ويحدث هذا التخفيف في جسم البقرة نفسها التي هي أقل حساسية من الانسان للاصابة بالجدري

وقضية التلقيح ضد الجدري قد أصبحت معروفة جيداً في أيامنا هذه ، وتقوم كما لا يخفى باستعمال اللقاح البقري : فبعد تلقيح العجول يؤخذ الصديد الذي يتجمع في البثور ويوضع في أنابيب معقمة ثم يستعمل عند الحاجة . وهذا اللقاح هو الأكثر استعمالاً في أيامنا هذه.

أما اللقاح البشري فيستخرج من الصديد الذي يتولد في البثرة بعد تلقيح الانسان ، وهذا قليل الاستعمال لأنه ينقل أحياناً أمراضاً معدية قد تكون موجودة في الشخص المنقول منه اللقاح : كالداء الزهري مثلاً أو الملاريا الخ. ويقدر العارفون أن عدد الحوادث التي تنجم اليوم من مضاعفات التلقيح ضد الجدري قليلة جداً : ٦٩ حادثة على ١٠٠٠٠٠ تلقيح ، وأغلبها خفيفة وقتية . أما من حيث الوفيات الحاصلة من مضاعفات التلقيح نفسه فتقدر بـ ٤ فقط من مليون طفل ملقح ، وأسباب هذه كلها ناشئة بلا ريب من اهمال

النظافة والتطهير ومن عدم تغطية المكان الملقح بضماد صغير يقيه من الأوساخ والعدوى الخارجية .

* * *

بقي أن نذكر كلمة أخرى عن داء الكلب والحقن الواقية والشافية منه . فالعلامة الفرنسي باستور (١٨٢٢ — ١٨٩٥) وجد له حلاً مختلفاً . فقد أخذ النخاع الشوكي من حيوان توفي بهذا الداء للبحث فيه عن المادة السامة التي أدت الى وفاة هذا الحيوان . فوضع النخاع في زجاجة تحتوي في قعرها على البوتاسا الكاوية ، وهذه البوتاسا تجفف هواء الزجاجة بامتصاصها بخار الماء ، ويجف النخاع أيضاً بهذه الطريقة ، فتضعف سميته تدريجيًّا بحيث تغدو بعد ١٢ — ١٤ يوماً معدومة ولا لها أي تأثير على احداث الكلب في الحيوانات المراد تلقيحها . ويبتدىء العلاج للانسان بحقن النخاع المشار اليه : أولاً من ذي الأربعة عشر يوماً ، ثم من ذي الثلاثة عشر يوماً ، فالثاني عشر فالحادي عشر الى أن نصل أخيراً الى النخاع الذي مضى عليه يومان فقط ، والعلاج الكامل يدوم نحو عشرين يوماً . ويجب تلقيح المصاب مرتين خلال الخمسة أيام الأولى ، أما في العشرة أيام الأخيرة التي تستعمل له فيها نخاعات شديدة الفاعلية فلا يعمل له خلالها سوى تلقيح واحد .

وقد استنبطوا أيضاً طرقاً أخرى لتخفيف سمية الداء بغية تلقيح المصابين به . فجربوا مثلاً استنبات جراثيم هذا الداء وتربيتها في معامل الاختبار ، في ظروف لا تنمو فيها الخواص البيولوجية لهذه الجراثيم ، وعلى الخصوص قدرتها المرضية واستعملوا أيضاً لهذا الغرض عوامل طبيعية وكيميائية مختلفة ، تخفيفاً لسميتها ، أو ابادة لهذه السموم ، وذلك تارة بالحرارة وأخرى باضافة بعض مواد مطهرة كالحامض الفنيكي مثلاً . وفي كل حال يكتفى في مثل هذه الحالة بأخذ المواد السامة المخفف مفعولها — تلك التي نمت من تربية الجراثيم المذكورة في معامل الاختبار ، وواضح أن أخطار التلاقيح تكون أقل اذا استعملنا جراثيم مرضية ميتة في تلقيحاتنا اليومية .

بيروت — لبنان

الدكتور عبده رزق

الساكن الجديد

يحكى أنه وقع في سالف الزمان حادث غير مألوف في حيّ عتيق من أحياء القاهرة . فقد نزل بذلك الحيّ رجل مصريّ المظهر ، واختار لسكنه منزلاً قديماً متهدّماً يملكه الحاج محمد الشربيني ، الشيخ الرقيق الحال .

وتجمع أناس من أهل الحي في مقهى زريّ ، وطفقوا يتساءلون عن السبب الذي دعا ذلك الغريب المصريّ الى اختيار حيهم الفقير للاقامة فيه . وقال أحدهم بعد أن شدّ من نرجيلته نفَساً طويلاً ، وأطلق دخانها في الهواء .

— يبدو لي أنه غير مصريّ .

فعقّب رفيق له يجلس الى جواره .

— ولِمَ ذلك ؟.. ألِأنه صبيح الوجه مشرقه ؟... هو العز الذي يضفي على صاحبه مثل هذا الرونق .

ورفع أحد الحاضرين فنجان القهوة عن فمه وقال .

— يخيّل إليّ أنه أمير .

وشرق مدخّن النرجيلة بدخانها على أثر ضحكة انتابته ، وتساءل متهكماً بعد أن سكن هو والذين جاروه في الضحك .

— أمير يقطن حيّنا ؟!! ..

وظهر الحاج الشربيني حينئذٍ على عتبة المقهى ، وقال وهو يضحك عن أنياب صفر متناثرة في فمه المظلم .

— ولِمَ لا يقطن داري أمير ؟! .. إنه سنجق كبير خطير .

وتعالت الأسئلة منهالة عليه من كل جانب .

— أقابلته ؟ ...

— ماذا قال لك ؟ ..

— وكيف عرفت أنه سنجق ؟ ؟ ...

— اصمتوا حتى يقصّ علينا الأمر .

— أفسحوا له فرصة للكلام .

وجلس الشيخ إلى جوار مدخّن النرجيلة مزهوّاً بنفسه . وقال بعد أن سكنت الجلبة .

— شاهدت بعيني شارة وظيفته مطبوعة على أوراقه ، وعلى أثاثه .

ألم تروا خادمه في ثوبه الموشّى بالقصب ؟ ! انه من سناجق المماليك المرموقين .

فحاوره جليسه قائلاً :

— إذا كان الأمر كما تقول فلا بد من أن تكون دولته قد دالت .

وقال آخر :

— لا بد من أنه فقد جاهه وماله .

فاحتجّ الحاج قائلاً .

— لا ، إن مظهره يدل على الغنى . ألم تروا خادمه في حلته الثمينة ؟ ألم تشاهدوا رياشه أثناء نقلها الى الدار ؟

ثم دسّ يده في جيبه ، وأخرج قبضة من النقود الذهبية وضعها على المائدة . وصاح وقد انفرج ثغره عن ابتسامة عريضة .

— انظروا ... لقد دفع لي قيمة الايجار عن الثلاثة الأشهر القادمة ... هذا الفقير المسكين ! ! ...

مرّت الأيام ، وتحوّل المنكرون الى مصدّقين ، وانقلب استخفافهم بالسنجق الى إعجاب به ، وفخار بإقامته بين ظهرانيهم . وزاد هذا التبدل الذي طرأ على القوم زهو الحاج الشربيني واعتزازه بداره التي شرّفها ذلك العظيم باختيارها سكناً له وتبدّل حال الحيّ فلم يغرق في مثل الركود الذي كان غارقاً فيه من قبل . بل تعددت المشاهد التي بهرت قطانه . كان بعض

الفرسان يقصدون على ظهور جيادهم المطهمة دار السنجق ، ويحيون فيها ليالي لهو وطرب تملأ الأرجاء ألحان شجية تتخللها صيحاتهم وقهقهاتهم .

وتناول خادم السنجق في ليلة تغيّب فيها مخدومه من داره ، وتوجه الى ذلك المقهى الذي سبق ذكره ، وأخذ يحدث المجتمعين فيه عن جاه سيده العريض ، وسلطانه المتيد ، وعن تواضعه على الرغم من ذلك الجاه والسلطان . ثم تطرّق الى ذكر ثرائه الواسع ، وأخذ يلعن الجود الذي كثيراً ما أتى على ما عنده من مال قبل أن يصل اليه ناظر مزرعته ريعها السنوي الوفير .

وتعددت زيارة الخادم للمقهى . وبالغ مستقبلوه في توقيره ، وبالغ هو في إحاطة نفسه بمظاهر الوقار حتى بدا كأنه السنجق نفسه . وقال ذات ليلة لمالك الدار التي حازت الشرف الأكبر .

– لا بدّ لي من أن ألفت نظرك إلى أمور لا يعرفها مثلك فالسنجق لا يزار . ولكنه هو الذي يستدعي من يشاء الى داره متى يشاء . والسنجق لا يطالب بمال ولكنه يغدق من ماله متى يشاء على من يشاء .

وكان صوت الخادم وهو يلقي عباراته رهيباً فلم يعجز عن بث الرهبة في قلوب مستمعيه

وانقضت الشهور الثلاثة على هذا المنوال . وحلّ دفع قيمة الايجار الجديد . ومنى الحاج نفسه بأن ينفحه السيد العظيم قبضة أخرى من القطع الذهبية . ولكن الأيام تعاقبت بعضها في إثر بعض دون أن تتحقق هذه الأمنية . وساوره القلق ، ولكنه ظلّ يتظاهر لرفاقه من روّاد المقهى بالاطمئنان ، ويضع السنجق فوق كل مظنة . على أنه كان لا يملك من حطام الدنيا الاّ تلك الدار ، وليس له من مورد لرزقه ورزق أولاده الاّ ما تغلهُ ، فلما طال انقطاع ذلك المورد عنه ساءت حاله ، وعضه وعض أهل بيته الجوع ، وخانه الصبر فلم يطق السكوت . وراح يقص على أولئك الرفاق ما يعاني من ضيق . فقال له مدخن النرجيلة ، وكان يمت اليه بصلة نسب .

وما الذي أسكتك الى الآن ؟ اذهب اليه ، واشك له سوء حالك . فهو اذا ما وقف على حقيقة أمرك أعطاك فوق ما تطلب .

وتعالت العبارات التالية من جوانب المقهى على التعاقب .

— لعلّ السنجق نسيك ! فقيمة ايجاره الزهيدة مما لا يخطر لمثله على بال .

— اذهب اليه واطلب نقودك ، فهو لا يرضى بارهاق فقير مثلك .

— لِمَ لاتذهب اليه ؟ . . لا شكّ في أنه سيرفق بك ، ويطيب نفسك

وهزّ الحاج محمد رأسه متنهداً وغمغم .

— السنجق لا يزار ... السنجق لا يطالب بمال .

وأسقط في يد القوم ، فلما وجدوا أن ليس في الامر حيلة ، صارحوا صاحبهم التعس بأن ليس له في مثل هذه الحالة الاّ الاذعان .

وكان خادم الامير يتحاشى في تلك الأثناء المقهى . ولكنه توجه اليه أخيراً في ليلة حسبها القوم سعيدة الطالع ، وأخبر الحاج محمد بأن سيده تعطف فأذن له بزيارته في الصباح التالي . وما كاد الرسول يعود أدراجه حتى صاح الشيخ متهللاً .

لقد كنت أتوقع ذلك ، والسنجق لا يهضم الحق كغيره من الناس ولا يستهين بالشرف استهانتهم به .

وتنفس القوم الصعداء ، وتباروا في تمجيد السيد الكبير والتحدث بمناقبه .

وأسرع الحاج في الصباح الى منزل السنجق ، فاستقبله هذا الأخير هاشّاً ، وابتدره بقوله .

— لعنة الله على ناظر مزرعتي !! ذلك المهمل الذي لم يرسل إليّ حتى الآن ما طلبت من مال . على أنه بعث إليّ منذ يومين بخطاب يدعو الى الطمأنينة . وأنا لن أكتفي حين وصول المال المنتظر بدفع الايجار الذي تطلب فحسب ، ولكني سأنفحك إيجار العام المقبل سلفاً .

وحملق الحاج في جليسه وقد بردت أطرافه ، واضطربت أنفاسه . وواصل السيد كلامه بعد تردّد قصير

— وبما أن نقودي قد نفدت ، فأعطني مبلغ خمسين جنيهاً على أن أرده إليك مع المبالغ الأخرى .

ودار المكان بالحاج ، وأظلمت الدنيا في عينيه . وحاول أن يذكر للمصريّ الغنيّ رقة

حاله ، وجوع عياله ، وقضاءه أياماً طوالاً لم تقع عينه فيها على قطعة من المال . ولكن الكلمات حشرجت في حلقه الذي جفّ ويبس . ووقف السنجق فحذا حذوه في غير وعي . ولم يعد الى رشده إلاّ على صوت الخادم الذي طفق يسأله وهو يقوده الى باب الدار .

- ماذا دهاك ؟ ... ألم يعطك سيدي ما تسأل ؟

فأجاب فاغراً فاه :

- لا ياسيدي . بل طلب مني خمسين جنيهاً ... أنا الذي لا يملك خمسة قروش .

وصاح الخادم وهو يبدي دهشته :

- أطلبَ منك هذا المبلغ حقّاً ؟... أأولاك كل هذا الشرف الكبير ؟!

فغمغم الحاج في مرارة :

-- ولكني لا أملك شيئاً . ألا تفهم معنى قولي ؟! .. أنا لا أملك قرشاً .

ورفع الخادم رأسه ، وحدج الحاج بنظرة صارمة . وقال:

- طلب السنجق أمر واجب الطاعة ، فلا معدى لك عن أن تصدع له .

واجتمع الحاج في المقهى بنسيبه ورفقائه ، وأعاد على مسامعهم ما دار من حديث بينه وبين كل من السنجق وخادمه. ولما رأى الوجوم يسود الجمع ازداد اضطرابه ، وأخرج منديله الأحمر العريض ، وأخذ يمسح به العرق المتصبب من وجهه

وقال نسيبه ، بعد فترة سكوت .

- إن الله ذاته لا يكلف نفساً فوق وسعها .

وعدّ بعض الحاضرين هذه العبارة تحدياً للسنجق فلم يرتاحوا اليها ، وصاح أحدهم .

- لا يجمل بنا أن نخذل سيداً كبير القدر في ضيقه .

فردّ الحاج محتدّاً .

- ولكننا نعاني ضيقاً أشد من ضيقه .

وعقب نسيبه بقوله :

- من أراد منكم عون السنجق ، فليعنه بماله لا بمال غيره .

فتعالت الصيحات من جوانب المقهى :

— لا يجمل بنا أن نخذله .

— لا بد من أن نتعاون على تلبية طلبه .

— هذا واجب لا مفر منه .

— أنا أدفع جنيهاً .

— وأنا أدفع جنيهين .

واشتعلت الحماسة بين الحاضرين ، فجادوا بثمن قوتهم ، ولم يحل المساء حتى تجمع لديهم المبلغ المطلوب . وجاء الخادم الى المقهى يستطلع أخبار الحاج ، فوجد مطلب سيده موفوراً ، فحمله اليه راضي النفس مسروراً .

وتعاقبت الأيام دون أن تنفرج أزمة السنجق فيفي بوعده ، ويؤدي دينه . ولم يفكر أهل الحي في تفريج ضيق الحاج كما فرجوا ضيق مدينه ، الاّ إذا استثنينا نسيبه الذي قاسمه قوته ، وحرم نفسه حتى تدخين النرجيلة ليوفر معاش الأسرتين .

وكانت الليالي تمر بالمقهى متجانسة لا يجد فيها جديد . فالوجوه التي تجتمع هناك تظهر بعينها في كل ليلة ، والأحاديث التي تدور بينها لا تختلف ولا تتنوّع . على أن غريباً دخل ذلك المقهى في إحدى الليالي فاستثار فضول الحاضرين ، وكان جاء ليقابل صديقاً له من أهل الحي فلم يجده ، ورأى أن ينتظر قدومه ، فانتحى ركناً من الأركان ، واتخذ له مقعداً فيه . وسمع القوم يتحدثون عن السيد الكبير فخاض غمار الحديث وسألهم :

— أهو طويل بدين مبطان ، وجهه أبيض ، وشعره أحمر ؟؟ .

فصاح الحاضرون

— هو كذلك ... أتعرفه ؟

ولكنه عاد يسألهم :

— أله خادم وسيم يلبس القصب ؟

فأجابوه متلهفين :

— نعم هو بعينه .

وانهالوا عليه أسئلة .

— ماذا تعرف عنه ؟

— أهو سنجق حقاً ؟

— أهو غنيّ ؟

— حدّثنا عنه بربك ...

وصمت الغريب حتى سكنت الضجة ، ثم طفق يقول :

— نعم ، كان سنجقاً واسع الثراء ، ولكنه لم يتوان عن تبديد ثروته . ولما حلّ به الفقر بعد الغنى ، عجز عن احتمال ذلة الفاقة ، وراح يلتمس المال عند الأثرياء من معارفه القدماء ، فكان يقصد الواحد من هؤلاء فلا يرجع من عنده إلاّ بملء الوفاض . ونزل فندقاً لم تعرف القاهرة أفخم منه ، وعاش على كرم أصدقائه عيشة لا تقل في مظاهر بذخها عن عيشته أيام ثرائه .

ولكن كرم أصدقائه لم يلبث أن شارف نهايته ، فأخذوا يتبرّمون به وبمطالبه ، ويوصدون أبوابهم في وجهه فشحت موارد رزقه ثم نضبت ، وعجز عن سداد مطالب الفندق فطولب بمغادرته . وتناقلت الألسن أخباره التي سرعان ما وصلت الى خدم الفندق . وأشفق هؤلاء عليه ، ورفقوا بحاله ، ورأوا أن يتعاونوا على تفريج كربته ، فجاد كل منهم بما وسعه وجمعوا خمسين جنيهاً ، والتجأوا الى خادم السنجق ليرفع الى سيده هبتهم المتضعة . ولكن الخادم عاد بها إليهم ، وأنبأهم أن مخدومه لا يقبل منحة من الخدم . ثم إنه لا يتنازل فيقبل هبة تقل عن مائتين من الجنيهات .

وتهدّج جلاس المقهى فرحاً لدى سماع هذا القول ، وصاح أحدهم .

— ولكن السنجق كرُمنا فقبل منا هبتنا .

وصاح آخر .

— لقد رضي منا بخمسين جنيهاً فقط !! ..

وابتسم الزائر الغريب ثم أردف .

— لكن السنجق بعث برسوله بعد يومين الى خدم الفندق ينبئهم أنه رأى بعد التروّي أن يقدر عاطفتهم النبيلة ويقبل هديتهم ....

وطأطأ القوم رؤوسهم ولم يجرؤ أحدهم على القطع برأي في أمر السنجق الى أن تعالى صوت من أحد الأركان يقول .

— يا له من سيد كريم نبيل !!

فهزّ القوم رؤوسهم مصدقين ، وهمهموا مؤيّدين ....

واستحكمت الشدة التي كان نسيب الحاج محمد يعانيها . فانه لم يكن يحصل فيما مضى على قوت عياله إلاّ بشق النفس . فلما تضاعف حمله كاد ينوء به . وراح ينفّس عن نقصه بانتقاص قدر السنجق ، والنيل من سمعته ، ووصمه بخراب الذمة . وأخذ يدفع الحاج الى المطالبة بحقه والاشتداد في ذلك . وقال له في عصر أحد الأيام وهما جالسان على باب المقهى .

— لماذا تتهيّبه الى هـذا الحد ؟ ! أيهضم حقك ، ويتركك وأهل بيتك عراة جائعين ، بينما ينفق هو المال على قصفه ولهوه بغير حساب ؟ ثم لا يكون جزاؤه منك إلاّ التبجيل والتكريم ؟

فحار الحاج هنيهةً . ثم رفع بصره إليه وقال :

— ان كنت أنت لا تخشاه فاذهب اليه وطالبه بحقي نيابة عني .

فتهدّج الرجل حماسة وصاح .

ولِمَ لا أذهب إليـه ؟ أتحسب أنه سيسلخ جلدي ؟ ... أو سيدفنني حيًّا ؟ ! ما هـذه المسكنة التي ضربت على أهل هذا الحيّ ؟ !

وانتفض الحاج فجأة وهمس في أذن جليسه .

— أنظر ... ها هو ذا مقبل صوبنا .

وكان السنجق يسير الهوينا تحف به الهيبة والوقار . ووقف الرجلان هيوبين إذ اقترب منهما . وانحنيا له حتى كاد رأساهما يلمسان الأرض

ولـكن الجدل لم يلبث أن احتدم بين الرجلين ثانية ، ثم أخذا يقلبان الأمر في روية على مختلف وجوهه حتى استقرّ رأيهما على أن يرفع الحاج عريضة الى السنجـق يشرح فيها سوء الحال ، وشدة حاجته الى المال .

وكتب لهما العريضة صديق من جلساء المقهى يكاد يرسم الحروف رسمًا ، وبالغ في وصف بؤس الحاج ، كما بالغ في الاشادة بشمائل السنجق وبعطفه على المعوزين ورحمته بهم .

وأرسل السنجق في طلب الحاج على أثر وصول العريضة اليه ، وقال له حين مثل بين يديه

— أأنت فقير الى الحد الذي شرحته في استرحامك ؟ ؟

فأجابه الحاج بصوت متهدج ؟

— أولادي جياع يا سيدي الامير .

فقال السنجق وهو يبتسم إبتسامة إشفاق :

— أنا رجل عادل وأرى أنه لا يجوز أن تحتمل هذا العبء وحدك . فعليك أن تجد لي مسكنًا آخر من منازل الحيّ خاليًا لانتقل إليـه ، وأدع لك دارك تستغلها كما تشاء . وسأظل أتنقل بين مساكن الحيّ حتى تردّ لي نقودي . فمن واجب كل منكم أن يضحي كغيره في سبيل السنجق ... هذا هو العدل التام .

وقام حيّي الحاج وهو يبتسم ابتسامة دلت على رضاه التام عن نفسه .

محمد مفيد الشوباشي

قرطبة

في عشية السبت الأول من أغسطس سنة ١٩٤٧ تركنا مدريد عاصمة أسبانيا بعد أن أخذنا أهبتنا وتزوّدنا لسفر طويل يزيد عن خمسمائة ميل لكي نصل الى قرطبة قرابة عصر اليوم التالي . سرنا في أمان الله في طريق جبلي مرصوف كثير الالتواء والارتفاع والهبوط. وقد أرسل القمر أشعته الفضية على ما يحيط بطرقنا من سفوح الجبال والهضاب والوهاد ، فتنعكس في أبدع صورة وأجمل ما حبته الطبيعة من مناظر زادها حسناً وبهاء تلألؤ أنوار الكهرباء التي تربط المدن والقرى بعضها ببعض والتي كانت تلوح لنا من بعد على سفوح الجبال فتسر الناظرين إليها كأنها عقد من جمان نظمت فيه لآلىء منثورة بين المروج الخضر

استمرّ الحال كذلك ونحن نجتاز أنواعاً شتى من المناظر الطبيعية التي يندر وجودها في مكان آخر حتى انتصف الليل وغلبنا النوم الى شروق الشمس بعد أن قطعنا نحو أكثر من نصف الطريق . وهنا تختلف المناظر الطبيعية عن السابقة قليلاً ، اذ تقل الارتفاعات وتتسع رقعة المزارع المستوية في أغلب الأحيان رغم ما يحيط بها من جبال كأنها سلسلة من أحواض قليلة الغور بعيدة الحافة تختلف سعة بعضها عن بعض . وتنتشر فيها زراعة الغلات الغذائية كالقمح والشعير والذرة والأرز على جانبي وديان الأنهار وفروعها التي تنحدر من سلاسل الجبال المنتشرة في الهضبة الاسبانية ، كما تكثر على مدرّجاتها حقول الكروم والزيتون والخرنوب وأنواع الفاكهة المختلفة كالتفاح والكمثرى وغيرها من الأشجار الدائمة الخضرة التي يشتهر بها حوض البحر المتوسط . وأهم ما لفت نظرنا كثرة مراعي الثيران البرية التي تربى خصيصاً للمصارعة .

وبينما نحن في مرحنا ومرورنا نتجاذب أطواف الحديث إذ لفت نظرنا من بعد شبح

أبنية أخذ يزداد عددها كلما قربنا منها فأخبرنا أحد موظفي وزارة الخارجية الأسبانية المرافقين لنا أنها أبنية قرطبة .

وبعد قليل وصلنا إليها وتهادت سيارتنا مارة بأحيائها الجديدة والقديمة تجوب شوارعها الضيقة الملتوية ، تكتنفها منازل عالية متلاصقة فتحجب عن الشوارع بعضاً من إشعاع الشمس فتقل حرارتها صيفاً . ولذلك كان السير في هذه الشوارع القديمة مستحب في أشهر الصيف عن السير في شوارع الأحياء الجديدة الواسعة . وتفتح أبواب المنازل في الأحياء القديمة الى ردهات صغيرة ملتوية لتحجب عن المار رؤية الداخل . وتؤدي هذه الردهة الى فناء واسع مكشوف تحيط بأغلبها بوائك على عمد رشيقة يعلوها حجرات الدار ، المطلة على الفناء . وقد غرست به أشجار الفاكهة وصففت على جوانبه أصص الرياحين والأزهار فيعبق الجوّ برائحتها الزكية وتملأ حجرات المنزل . وأهم ما يلفت النظر أن أسفل جدران المدخل والفناء غشي بتربيعات القيشاني البديعة الصنع الدقيقة الزخارف . ولا غرو فان تصميم هذه المنازل كان متبعاً عند قدماء المصريين ، ثم انتقل الى أرض الجزيرة بالعراق ، ثمّ نقله الفنانون الامويون مع خلفائهم الى أسبانيا حيث انتشر بدوره خاصة في جنوبها وجنوبها الشرقي . وقد نزلنا بأحدى تلك الدور الشرقية القديمة مقر سكن طلبة جامعة قرطبة ، وفيها استرحنا قليلاً من عناء السفر ، وأنّى لنا أن نستريح ونحن متلهفون لرؤية آثار عظمائنا المسلمين في مسجدهم المشهور بمسجد قرطبة التي تفخر به هذه المدينة ، عاصمة الاندلس قبل الفتح العربي وبعد فتحها عام ٧١١ ، وقد اتخذها عبد الرحمن الداخل الأموي في مبدأ الخلافة العباسية عاصمة له ولخلفائه حتى استردها فرديناند الثالث بعد أن ترك بها المسلمون من المشروعات العمرانية المختلفة ما تشهد بعبقريتهم الفذة في أنواع الفنون المختلفة وتسجل في تاريخهم آثاراً فريدة في نوعها تدل على نهضة فياضة زاخرة

فمن مشروعاتهم الحيوية اصلاح القناطر الرومانية سنة ١٠١ على نهر الوادي الكبير الذي يحد المدينة من الجنوب . وقد أقام هذه القناطر يوليوس قيصر قبل الميلاد بخمسين عاماً وتنتهي من الطرف الشرقي بقلعة من بناء العرب لها برجان عظيمان .

وكان بقرطبة قرابة الألفي مدرسة لتدريس العلوم وتخريج العلماء ، وكان على رأس هذه المدارس مسجد قرطبة العظيم الذي كان بمثابة جامعة اسلامية كالجامع الأزهر إبان

العصر الفاطمي . وكان يؤمه المسلمون في مشرق الأرض ومغربها لتحصيل العلوم على أساتذتها المتضلعين .

وقد بلغ من تسامح العرب الديني عند استيلائهم على قرطبة ، أن اقتسموا الكنيسة بينهم وبين المسيحيين ليقيم كل منهم شعائرهم الدينية . فأقام المسلمون صلواتهم في النصف الجنوبي الشرقي المواجه للكعبة . وأقام المسيحيون صلواتهم في النصف الآخر . وظلّ الحال كذلك قرابة الثلاثين عاماً من حكم عبد الرحمن الأول حتى استتب الحكم العربي بقرطبة ، وزاد عدد المسلمين بها حتى ضاق بهم المسجد . فتفاوض الخليفة الأموي عبد الرحمن مع المسيحيين لشراء نصف الكنيسة الآخر ليضمه للمسجد نظير مكافأة مالية كبيرة يمنحها المسلمون للمسيحيين لاقامة كنائس لهم خارج قرطبة حتى لا تتعطل شعائرهم . وقد كان في وسع خليفة المسلمين الاستيلاء على نصف الكنيسة الآخر دون أي مكافأة أو تعويض . فأين حرية الفرد الدينية اليوم من أمس

وقد تمّ الاتفاق بين الطرفين وأضيف النصف الثاني للمسجد عام ١٧٠ هـ . ويعرف هذا المسجد بمسجد عبد الرحمن الأول . وكان يتكوّن من فناء تتقدمه أروقة الصلاة وعددها احد عشر رواقاً تفصلها عشرة صفوف من الأعمدة في كل صف احد عشر عموداً فيكون عدد الأعمدة جميعها مئة واحد عشر عموداً . ولم ينته المسجد عند هذا الحد بل أضيفت اليه ثلاث زيادات أخرى من الجنوب والشرق حتى بلغ عدد أعمدته ١٢٩٣ عموداً . وذلك لزيادة اقبال المسلمين على المسجد فأضاف عبد الرحمن الثاني عام ٢٤٨ ثمانية أعمدة إلى كل صف من الصفوف العشرة السابقة في مسجد عبد الرحمن الاول .

وفي عهد الحكم عام ٣٥٥ امتدت صفوف الأعمدة من جهة القبلة عشرة أعمدة أخرى وجعل به محراب جميل تحيط به تربيعات القيشاني الجميلة وحولها اطار من الكتابة الكوفية عليها تاريخ انشائه .

وقد استجاب المنصور عام ٣٧٦ لرغبة المسلمين في إضافة زيادة ثالثة الى المسجد ولكنه لم يتوسع جنوباً كما فعل أسلافه ، بل أضاف زيادة الى المسجد من الجهة الشرقية . فأضاف تسعة أروقة بطول المسجد ليكون عدد أروقته النهائية تسعة عشر رواقاً . وقد منعه نهر الوادي الكبير من التوسع جنوباً كما منعه قصر الخلافة من الجهة الغربية .

وبذلك أصبح شكل الجامع مستطيلاً ، طوله من الشمال الى الجنوب ١٧٥ متراً وعرضه من الشرق الى الغرب ١٣٤ متراً . وظلّ المسجد بدون تغيير من عهد المنصور حتى غزا قرطبة فرديناند الثالث عام ١٢٣٦ ، فبنى به معبداً صغيراً لسانت كليمنت كما بنى في زيادة

الحكم معبد آخر قوطي الطراز في نهاية القرن الخامس عشر وفي عام ١٦٠٧ تمّ انشاء كنيسة عظيمة في وسط المسجد .

ويشغل الصحن ثلث مساحة المسجد . ويحيط به من الشمال والشرق والغرب صف من الأعمدة والدعائم . وقد كان مقسماً الى ثلاثة أقسام زرعت فيه أشجار البرتقال حتى أطلق عليه هذا الاسم . أما الآن ففيه أشجار الصنوبر والنخيل وترويه ثلاث نافورات شكل (٤)

ويبدو المسجد من الخارج كأنه قلعة محصنة بجدار سميك ارتفاعه عشرة أمتار ونصف متر تتوجه شرفات مسننة ، وتبرز من الجدران دعائم ساندة لتزيد في قوة البناء وتتحمل ضغط العقود المتكئة عليها من الداخل . شكل (١)

وبالمسجد تسعة عشر باباً أهمها المدخل الرئيسي في الجهة الشمالية ويقع في نهاية الخط الذي يتعامد مع المحراب والعقد الكبير الذي يتوسط مسجد عبد الرحمن الاول . وواجهة هذا الباب من الرخام المنقوش بزخارف بديعة مخرمة (كالدنتلا) تتوسطه كتابة عربية وهو مصفح بقطع من النحاس بعضها مثمن الشكل ، والبعض الآخر حشوات صغيرة متعامدة حفرت عليها زخارف نباتية (أرابسك) . وقد أزال المسيحيون — عقب استيلائهم على قرطبة وتحويلهم المسجد الى كنيسة — بعض هذه الزخارف وحفروا بدلها صلباناً وشارات ملوكهم من الكاستيليين ١٣٣٧ .

وعلى يسار الداخل مئذنة شاهقة الارتفاع . بناها عبد الرحمن الثالث الناصر عام ٣٤٠ بدلاً من برج الأجراس القديم . وقد بنى هذه المئذنة من الحجارة على نمط مئذنة الجامع الأموي بدمشق . وهي مربعة الشكل طول ضلعها ١٢ متراً وارتفاعها ٩٣ متراً وتتكون من خمسة طباق وضع المسيحيون بها أجراساً عام ١٥٩٣ . وللمئذنة بابان يؤدي كل منهما الى درج مستقل عن الآخر ولا يتقابل الصاعد عليهما الاّ في قمة المئذنة .

يجتاز الانسان الفناء الى المسجد نفسه فيجد نفسه في غابة واسعة أشجارها على هيئة صفوف من الأعمدة الرخامية المختلفة الأشكال والألوان . فمنها عمد ملساء ، وأخرى مقناة ، وغيرها تحيط بها قنوات حلزونية ويبلغ عددها ١٢٩٣ كما ذكرنا آنفاً ، جلب بعضها من ناربون الفرنسية ، والأخرى من أشبيلية أو تراجونا كما جلب البعض الآخر من خرائب قرطاجة المدينة الرومانية الى أن أحضر لها الامبراطور الروماني ليو الرابع تلك العمد من القسطنطينية .

ولما كانت مساحة المسجد كبيرة والأعمدة قصيرة الطول لا يزيد ارتفاع الواحد منها عن ثلاثة أمتار . فقد أملت على الفنان الارتفاع بسقف المسجد الى علو يتناسب مع مساحته

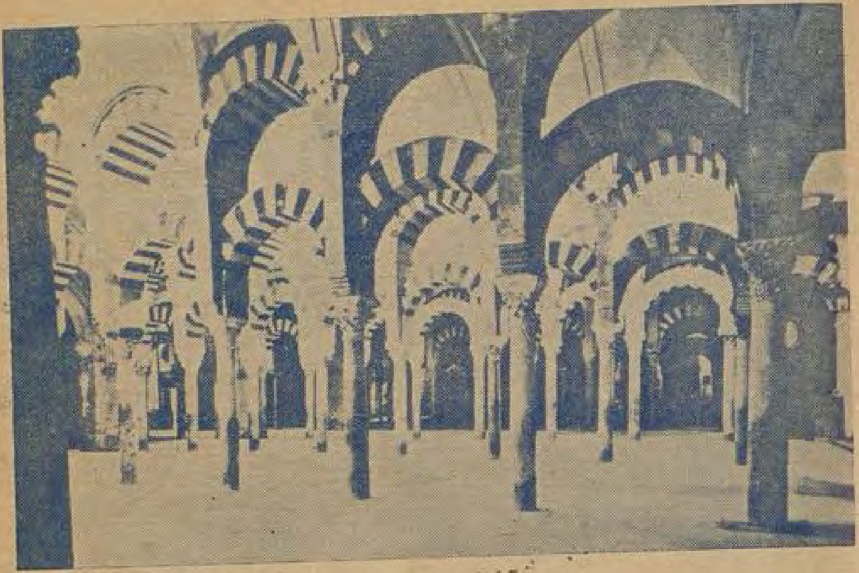

داخل المسجد بُعمده وعقوده المزدوجة ذات اللون الأبيض والأحمر

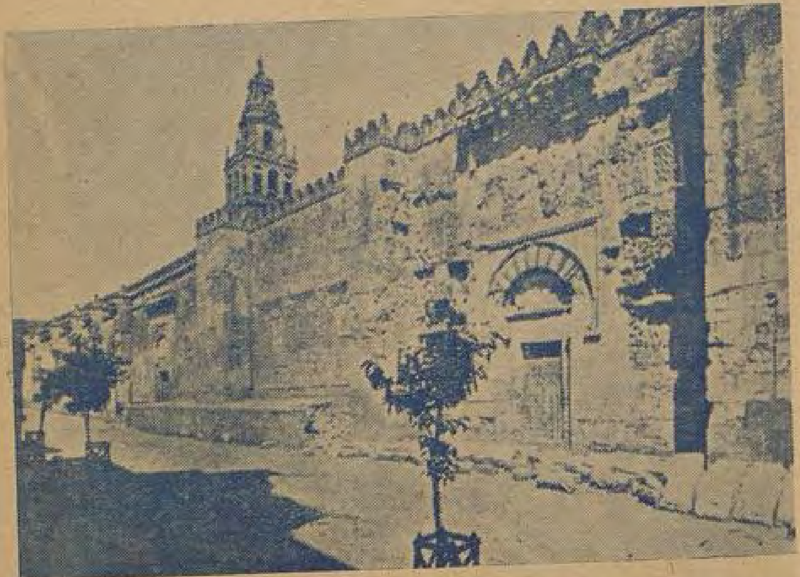

الجدار الغربي بشرفاته المسننة تبدو من ورائها المئذنة

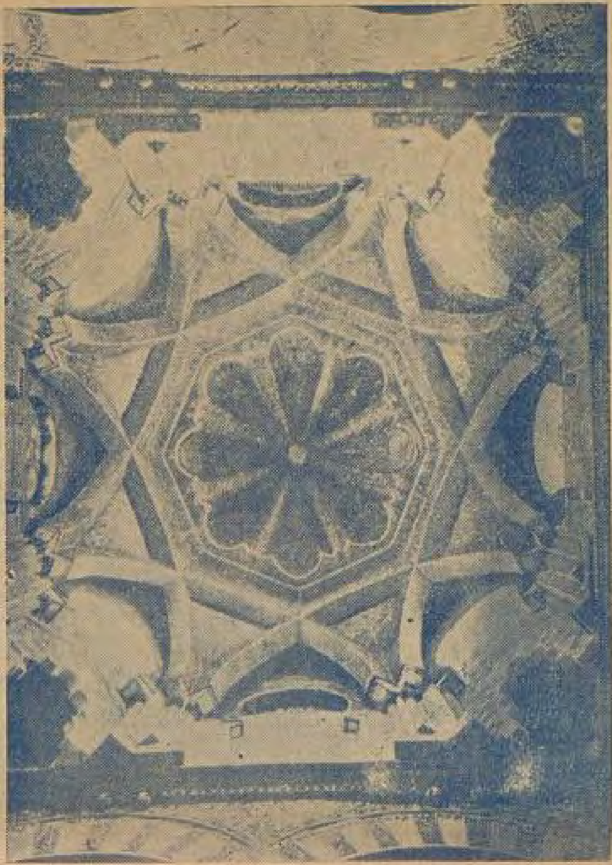

قبة المحراب من الداخل بقسيها المتقاطعة

شكل (٤)

شكل (٥)

فأقيمت فوق تيجان الأعمدة صفان من العقود على شكل حدوة الفرس يعلو الواحد منها الآخر على نمط عقود القناطر الرومانية كما هو مبين في الشكل (٢). ولكيلا يمل الناظر هذا المنظر المعقد، فقد بنيت الأقواس من فصوص رخامية بيضاء متبادلة مع أربعة صفوف من الطوب الأحمر وهي ظاهرة اسلامية تعرف بالأبلق. ونجدها بالقاهرة في قصر الشمع بمصر القديمة، وفي الأبنية المملوكية كمسجد الناصر محمد بالقلعة وغيره.

ولا يكاد الرائي يجول ببصره في هذه الغابة حتى يصطدم ببناء غريب يعترض هذه الأعمدة الجميلة. وما ذاك البناء إلا كنيسة كتانون أقامها رجال الدين المسيحي في عهد شارل الخامس في وسط المسجد في بداية القرن السادس عشر. كما نجد في بعض حنايا المسجد الجانبية معابد كنسية صغيرة لا تتفق وأبنية المسجد الداخلية. وقد فطنت الحكومة الأسبانية الى هذا الخطأ فأخذت تعمل على إزالة تلك المعابد المسيحية.

وقد زاد اعجابنا عندما توغلنا الى داخل المسجد نحو مقصورته. وهي مكان يتقدم المحراب، يفصله عن باقي المسجد سور صغير من الحديد لكي يمنع الناس عن الوصول الى المحراب البديع الصنع. وقد أعدّت المقصورة لكي يصلي الخليفة بها في معزل عن الناس وفي مأمن منهم. وقد نقل المسلمون فكرة انشاء المقصورة الى قرطبة من المسجد الأموي بدمشق حيث بنى بها معاوية بن أبي سفيان أول مقصورة في العالم الاسلامي.

ومحراب المسجد في نهاية الرواق السادس من الغرب وهو آية في الابداع الفني يعجز الواصف عن وصفه، وفي عضادتيه أربعة عمد اثنان أخضران، والآخران تشوبهما حمرة جميلة، ويعلو حنية المحراب ربع كرة مجوفة من الرخام المجزّع على شكل المحار. وزخرفت واجهته بفسيفساء مختلفة الألوان يزيدها بريقاً اللون الذهبي فيضفي عليها لمعاناً وشكلاً يبدو للرائي من الأمام بخلاف ما يبدو له من الجانب. ويحيط ببلاطات القيشاني شريط من الكتابة الكوفية، تشمل آيات قرآنية وأحاديث نبوية وتاريخ انشاء المحراب من عهد الحكم سنة ٣٥٥. ويعلو المحراب قبة مرتفعة حملت على ثماني قسي متقاطعة نتج عنها شكل نجمي تتوسطه وريدة بارزة أضلاعها، ملئت بالرسوم العربية المذهبة (شكل ٣)

وكان على يمين المحراب منبر فريد في نوعه وصناعته من خشب الأبنوس استغرق صنعه سبع سنين وعلى جانبي المحراب بابان أعدّ أيسرهما لحفظ أدوات المنبر وطسوت ذهب وفضة لوقد الشمع في ليلة ٢٧ من رمضان ويقال انه كان يحفظ به مصحف يرفعه رجلان لثقله فيه أربع ورقات من مصحف عثمان بن عفان الذي خطه بيمينه وفيه نقط من دمه سقطت عليها أثناء اغتياله.

أما الباب الآخر فانه يؤدي الى ردهة تؤدي الى بيت الخلافة (الكوار) كما يسمونه

الأسباق الذي كان يجاور المسجد من الخلف وقد نقل المسلمون هـذه الفكرة من الشرق كما كان الحال في مسجد الكوفة أيام علي رضي الله عنه. وفي مسجد عمرو بن العاص بمصر القديمة. ثم انتقلت الى شمال أفريقيا في القيروان، ومنها الى أسبانيا حيث نشاهد هذه الظاهرة في مسجد قرطبة . وكانت دار الخلافة تتصل بالمسجد مباشرة بواسطة دهليز مغطى بقبو يعترض الشارع الذي يحد جدار المسجد من هذه الجهة مع العلم ان مسجد قرطبـة الآن تحيط به شوارع أربعة من الجهات الأربعة .

وبالرغم من سعة هذا المسجد العظيم وكثرة عمده التي تربي على الألف فقد كان يضاء بثريات تبلغ ٤٧٠٠ ثرية من الفضة الخالصة . وكان بينها واحدة يوقد بهـا ١٠٠٠ مصباح ولم يبق من هذه الثريات إلاّ ٤٠٠ حتى أوائل القرن ١٨ أخذها الفرنسيون معهم عند دخولهم قرطبة في زمن نابليون. وكانت هذه المصابيح تستنفد في كل سنة ٢٤٠٠٠ رطل من الزيت

وكانت أضواء هذه الثريات تسقط على سقف المسجد بنقوشه الهندسية وألوانه الخلابة فتنعكس على المصلين فتروق عيونهم وتستميل نفوسهم. ولا يزال بعض هذا السقف الى الآن في أرجاء المسجد إلاّ أن الأرجاء الأخرى قد بدل المسيحيون بعض سقفهـا بأقبية متقاطعة تخفي وراءها السقف الأصلي وذلك لاقامة عقود كنيستهم فجاءت غير متناسبة مع باقي سقف المسجد فأخذوا الآن في رفعها وإعادة باقي السقف الى ما كان عليه قبلاً . ومع ان هذا السقف مستوٍ من الداخل إلاّ أن شكله من الخارج يكون مثلثات قائمة متوازية (جمالونات) كسقف المسجد الأقصى (شكل ٤) . ولم يتخذ الفنان المسلم هذا الشكل اعتباطاً وإنما كان يرمي الى فكرة جبارة تعرف بما نسميه اليوم بتكييف الهواء . وكان الغرض من السقف الخارجي الآخر ان يقلل من اشعاع حرارة الشمس داخل المسجد فيلطف من درجته ويجعل حرارته مقبولة كما يساعد من جهة أخرى على تصريف ماء المطر الذي يسقط عليه كما هو مبين بالشكل (٥) . وقد لاحظنا أن أرض المسجد قد طمرت الى علو نصف متر لتخفي ما تحتها من فصوص الرخام وقواعد العمد . وتعمل الحكومة الأسبانيـة الآن على رفعها واعادتها الى حالتها الأصلية كما تحافظ على باقي أرجاء المسجد .

ولا يسعنا إلا الفخر والاعجاب بعظمة المسجد الجامع وما حوى من روعة البنـاء ومختلف النقوش الاسلاميـة وما لا يتصوره أي انسان في مسجد آخر في العالم الاسلامي وهو بحق الدرة الثانية التي تتوّج هامة الارث الاسلامي باسبانيا في تاريخ العرب

محمد رجب البيلي
دبلوم في الآثار الاسلامية

باب الأخبار العلمية

تشارلس داروين في حداثته

بمناسبة مرور مئة وأربعين عاماً على مولده

كتبت بربارة كونواي تقول إن داراً مشيدة بالآجر الأحمر تظلها أشجار خضر باسقة وتحيط بها حديقة فسيحة فيحاء كانت البيت السعيد الذي نما فيه أبناء الدكتور داروين أحد مواطني مدينة شروز بري وهي مدينة انجليزية جميلة طاعنة في السن تتاخم حدود وايلس

وكان تشارلس — وهو واحد من أبناء الدكتور داروين — في الثامنة من عمره لما لفظت أمه النفس الأخير .

وقد وُلد هذا الصبي في عام ١٨٠٩ وترك وديعة ترعاها شقيقتاه اللتان تكبرانه سنًّا . وما كانتا تفطنان الى أن شقيقهما الحدث سيغدو في المستقبل قطباً طائر الصيت من أقطاب العلم في بريطانيا بعد وضعه نظرية التطور والانتخاب الطبيعي .

وكانت أسرة داروين في الصيف تجد من شجرة كستناء وارفة الظلال مغروسة في حديقة الدار الرائعة ، مكاناً مختاراً للهو والمرح . وكان كل من الابناء يختص نفسه بزاوية من الزوايا يستظل فيها بأفرع الشجرة الرخية .

وهنا ، في تلك البقعة التي تخيرها تشارلس لنفسه ، بدأ الصبي يقتني أول مجموعة من الخنافس والحشرات ويسهر على تعهدها والعناية بها ، فكان أن تفتق ذهنه عاماً بعد عام على الاهتمام المطرد بالشؤون العلمية والشغف بها ، ولا سيما لأنه ورث عن جده إرازمس

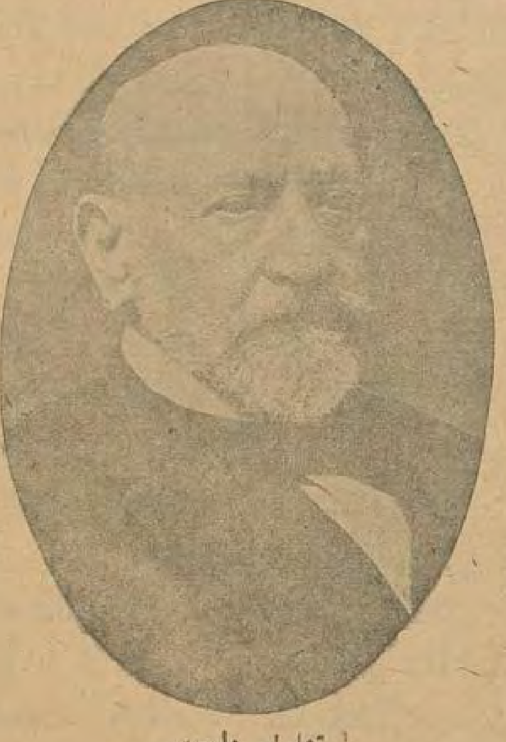

تشارلس داروين

دارون Erasmus Darwin كثيراً من خلاله واستعداداته ، وكان هذا الجدّ معروفاً بأقوال الحكمة يرسلها على السجية . ومن مأثور قوله : « ما أحمق الرجل الذي لا يقدم في حياته على تجربة ما »

* * *

وكان لدارون خيال خصيب وكان من دأبه أن يذرع الطرق منفرداً ويؤوب الى داره وفي جعبته أنباء وروايات مشبعة بالحيوية لمغامرات لا ريب في أنها ما حدثت. وكان الصبي يبدي حب استطلاع مقترن بالألمعية عدا انه كان ذا طابع جذاب في ذاته يجلب له من الاصدقاء عدداً موفوراً أينما حلّ وحيثما استقرّ به النوى .

وكان أبوه — وهو طبيب ذو شهرة ذائعة — يؤثر أن ينشأ إبنه تشارلس رجل دين . بيد أن الصبي كان يبدي كلما أمعن في النماء إعراضاً عن هذا الاتجاه ، وإقبالاً ظاهراً على احتراف مهنة الطب وإن كان مجرد التفكير في إجراء عمليات الجراحة في ذياك الأوان بغير استعانة بمواد التخدير ، يلقى من تشارلس صدوفاً وعزوفاً .

وتلقى تشارلس علومه في مدرسة البنين المشهورة في شروزبري ثم التحق بجامعة كمبردج وفيها تجلّت مواهبه العظيمة وان كان متجهه في الحياة لما يتقرّر . فكثيراً ما رأى فيه أصدقاؤه وخلصاؤه إمارات توحي بأنه سيغدو كاتباً روائياً في الطليعة ، ولكنه لم ير أن يكون هذا مقصده ومطمعه . وما كان أولئك الصحاب يفطنون إذ ذاك إلى أن تشارلس سيدوّن في ما بعد كتابين من من أقوى الكتب إثارة للخواطر ومن أبعثها على اهتمام الدوائر العلمية بمناقشة آرائها في العصر الفيكتوري ، وهما الكتابان اللذان عالج فيهما نظرية التطوُّر ، أو النشوء والارتقاء كما يؤثر البعض أن يسميها . وعنوانا الكتابين « منشأ الاجناس » و « منبت الانسان » . ويوم ظهر الكتابان ، كانا يعالجان موضوعاً علميّاً محفوفاً بالريب لا يدانيه في الخشية منه موضوع آخر في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

ولم ينزل من قدر آرائه في الأزمان الحديثة إلاّ قلة قليلة من نظرياته التي أماط عنها اللثام .

* * *

ولما همت السفينة « بيجل » بأن تنهض بسفرة إلى سواحل المحيط الهادي اقترح صديق من أصدقاء تشارلس دارون في جامعة كمبردج هو العالم النباتي الأستاذ هنسلو أن يلحق تشارلس بالبعثة باعتباره عالماً طبيعيّاً وبعد مجادلات تردّد صداها بين أفراد عائلته تقرر أن يسافر تشارلس ، فكانت تلك الرحلة باعثاً على تثبيت اتجاهه في الحياة إذ جعلت منه عالماً له نهج سليم منتظم .

البحوث الذرية والطب

عقد في شيكاغو أخيراً مؤتمر للأطباء نظمته الجمعية الطبية الأميركية وكان من أبرز ما قرره هذا المؤتمر ان الطاقة الذرية سواء استخدمت في القابل من الأيام استخداماً طبياً أو غير طبيب فمما لا ريب فيه أن طبيعة النوى (جمع نواة) ستغدو عاملاً مطرد الشأو في ممارسة الطبيب لمهنته

وتزعم بحوث هذا المؤتمر طائفة من الخبراء يمثل كل منهم منحى معيناً من فروع الطب ذات الصلة بالطاقة الذرية، واشتركوا مع الأطباء في بحث الآمال الكبيرة المعقودة على البحوث الطبية وعلى العلاجات والتشخيصات والتطبيقات التي تنطوي عليها طبيعة النواة. ولم يغفلوا كذلك بحث أمر العناية بالجرحى والمصابين في حالة حدوث اعتداء سلاحه الذرة.

وقال الدكتور بول ايبرسولد من مدينة أوكريدج في ولاية تنيسي — وهو مدير قسم النظائر isotopes في لجنة الطاقة الذرية — إن أكثر من ٧٠ ٪ من جميع ماشحن من النظائر من رصيد أوكريدج يستخدم الآن في بحوث طبية علاجية وفي بحوث التركيب العضوي (الفسيولوجي) للانسان والحيوان.

وقال إن هذه البحوث تجري الآن في ٢٢٩ مؤسسة ممتازة للبحوث وهناك كثير من المشكلات الحيوية الرئيسية الخاصة بصحة الانسان واصابته بالأمراض يعرض الآن للبحث والفحص. ومن الموضوعات التي مردها استحالة الطعام الى جزء لا ينفصل من البدن، وكيفية سير الدورة الدموية في الأوعية وأنواع الاصابات ووسائل التداوي بأنواع العقاقير المتباينة.

واستطرد قائلاً إن استخدام تلك النظائر في البحوث يجري في منهج طيب وربما أسفر في القريب عن نتائج بعيدة المدى

وقال الدكتور شيلدز وارين من مدينة بوسطن — وهو مدير قسم البيولوجي والطب في لجنة الطاقة الذرية — عن ميدان التطبيق العملي للمواد ذات النشاط الاشعاعي في معالجة الأمراض أن عدداً قليلاً جداً من النظائر أمكن تبين فعله حتى الآن، ولكن هذا العدد يطرد زيادة

وقال إنه بسبب ميل أنسجة معينة الى عناصر معينة، يمكن بفعل النظائر استخدام اشعاع بدرجة يراعى فيها انتخاب داخلي مركز حتى لا يمتد أثر الاشعاع الى انسجة لا يراد تعريضها له. وقال إن استخدام اليود ذي الطاقة الاشعاعية في علاج سرطان الغدة الدرقية، واستخدام الفوسفور في بعض حالات اللوكيميا، والذهب في حالات خبيثة أخرى تعد أمثلة على تطبيق العلاج

بحيث يوائم الحالة الخاصة بالمريض .

وأكد الدكتور جوزيف هملتون مساعد أستاذ الطب الطبيعي في جامعة كليفورنيا في مدينة بيركلي إن النظائر ذات النشاط الاشعاعي يمكن التعامل بها بسلامة وأمان اذا اهتدينا بما كسبناه من خبرة في تداول أشعة الراديوم وأشعة إكس .

وقال الأستاذ لويس ستروس عضو لجنة الطاقة الذرية إن استخدام الطاقة في أيام السلم يعدّ رقيًّا في الطب وإحالة له من علم محض الى غايات عملية . ولعلّ هذا أمرٌ خطير بسبب خشية الرأي العام من الطاقة الذرية وقلقهم مما أسفرت عنه عند تطبيقها للمرة الأولى في انتاج القنابل الذرية

واستطرد فقال إن من المشكلات الأخرى التي تعترض هذا الامر ، تلك المصالح الخاصة التي عليها الحكومات والمصانع والجامعات والمختبرات العلمية وتتشبث بها . وقال إن من العسير تعاون تلك الهيئات جميعها تعاوناً بعيد المدى في مشكلة شاملة كمشكلة استخدام الطاقة الذرية في أيام السلم .

* * *

وقال الدكتور ستافورد وارين عميد مدرسة الطب في جامعة كليفورنيا في لوس انجليس متحدثاً عن استخدام الطاقة الذرية في أغراض التدمير إن القنبلة الذرية من شأنها أن تنشىء مشكلة خطيرة يتعرض لها كيان الطبّ اذا استخدمت استخداماً معادياً للولايات المتحدة .

ووصف أنواع الاصابات التي تترتب على إلقاء قنبلة ذرية ومدى تلك الاصابات فقال : إن كل قنبلة يمكن استخدامها بإحكام لتأتي على خمس وعشرين مدينة كبيرة في الولايات المتحدة . واستعان الدكتور وارين على تبيان قوله بصور فوتغرافية تصوّر الخراب والدمار اللذين لحقا بمدينتي هيروشيما ونجازاكي اليابانيتين .

* * *

وقال الدكتور سنسنيفي من ولاية انديانا — وقد عين رئيساً للجمعية الطبية الاميركية في هذا الاجتماع — إن أهل الولايات المتحدة يعيشون متمتعين بصحة طيبة وانهم يحتفظون بهذا المستوى حتى يبلغوا سنًّا متقدمة وهم في هذا لهم سبقٌ لم تعرفه دولة أخرى في تاريخها .

* * *

وعزا الرئيس هذه الظاهرة إلى « روح تقدم الطب الاميركي » التي تتبدى في منح كل طبيب مستقل فرصة يرقّي فيها بحوثه وكشوفه العلمية ويحسّن خدماته الطبية متحرراً من كل تأثير حكومي أو نفوذ سياسي يعوق بحوثه ويعرقل أعماله .

وديع فلسطين

في ميدان العلم ..

عالمنا الذري

تقول أحدث النظريات العلمية في وصف الكوكب الذي نعيش عليه إن الأرض عبارة عن فرن ذري جبار تغطيه قشرة من الماء واليابسة عمقها الفا قدم (ستمائة متر) .

ويقوم الآن علماء أمريكا باجراء بحوث تحت سطح الماء في مناطق يبلغ عمقها آلاف من الأقدام لمعرفة شكل قاع المحيط والوقوف على نوع الانفجارات الذرية التي تجري في باطن الأرض .

ووظيفة هؤلاء العلماء قياس قاع الاطلنطي بوساطة أمواج الصوت . وطريقة ذلك احداث صدى صوتي انفجارين صغيرين أحدهما صادر من قاع البحر والآخر من الطبقة الصخرية التي تقع تحت الطبقة الطينية للمياه . ويقاس الصوتان على جهاز خاص بوساطة ميكرفون مثبت تحت الماء ، وبما ان سرعة الصوت تحت الماء والطين معروفة ، فانه يسهل قياس العمق .

وقد تبين ان قاع الاطلنطي في المنطقة الشمالية الغربية منبسط نسبيًا وان قشرة الأرض في هذه المنطقة مغطاة بطبقة من الطين والصلصال تحت سطح الماء . أما المنطقة الممتدة من ايسلندا حتى المناطق القطبية الجنوبية فهي عبارة عن سلسلة من الجبال يتراوح ارتفاعها بين ستة آلاف وعشرة آلاف قدم . وقد تبين أيضاً ان جزيرة برمودا عبارة عن جبل في المحيط ارتفاعه خمسة عشر الف قدم .

وتوجد في قاع المحيط ، كما توجد على سطح الأرض ، سهول ووديان تنبت بها نباتات غنية بالفيتامينات والبروتينات والزيوت والمواد الدهنية والكاربوايدرات وبعض المركبات الهامة في غذاء الانسان . كما ان درجة خصوبة التربة في قاع البحر تبلغ في بعض الأحيان درجة الخصوبة على سطح الأرض . ويعتقد بعض العلماء انه سيأتي يوم يتمكن الانسان فيه من استغلال قاع البحر في انتاج المواد الغذائية لتخفيف أزمات الطعام في العالم .

وهدف تلك الهيئات هو معرفة التركيب الجيولوجي لقاع البحر وتكوينه وشكله حتى يقف العلم على طبيعة القشرة الأرضية .

وتقوم جماعة أخرى من العلماء بقياس طاقة القشرة الأرضية على الاشعاع ومعرفة ما يجري في داخل الارض . وقد استطاع الدكتور ويليام اورى الاخصائي في معامل الجغرافيا الطبيعية بمعهد كارنجي في واشنطن بمساعدة عالمين من جامعة فورد هام قياس

الموجة الاشعاعية المنبعثة من الصخر في احدى النقط الواقعة على عمق كبير تحت أحد شوارع نيويورك . وأدّى هذا الى القاء ضوء جديد على هذا الموضوع .

فوجد هؤلاء العلماء الثلاثة ان البوتاس المشع ، الذي يشبه الحطام الذي الى حدٍّ كبير يشع الحرارة . وهذه الحرارة المعكوسة تكوّن حوالي ٧٥ ٪ من الدفء في العالم . وهذا الكشف يقضي على النظرية القديمة القائلة ان الكوكب الأرضي آخذ تدريجيًّا في البرودة ببطء . ويؤدي هذا الكشف الى نظرية جديدة وهي ان الأرض عبارة عن جسم يدفىء نفسه بنفسه أي حطام هائل من الانفجار الذري .

ويقول الدكتور أورى ان الفترة الواقعة بين وجود الأرض وبين الوقت الذي ينتهي فيه الوقود الذري في هذا الكوكب لا تقل عن عشرين بليون سنة . وبما ان الأرض حديثة العهد ، فان الوقود الذري في باطن الأرض كافٍ لتدفئة العالم لعدة مئات الملايين من السنين .

* * *

وقد لوحظ في السنوات الأخيرة ان حرارة القشرة الأرضية على اليابسة آخذة في الارتفاع ، وتحت سطح الماء آخذة في الهبوط . ويقول الدكتور أوري إن ذلك قد يكون راجعاً الى عدم وجود الجرانيت تحت سطح الماء . وستساعد البحوث التي يقوم بها العلماء تحت قاع البحر على كشف تلك الناحية .

تلفزة المسرح

شاهد النظارة في احدى دور العرض بشارع برودواي بمدينة نيويورك ، في الأسبوع الماضي ، حفلة ملاكمة أقيمت في حي بروكلين القريب من شارع برودواي . وقد تمت تلفزة الحفلة على موجتين من قاعة الملاكمة الى دار السينما ، حيث عرضت الصور مباشرةً بالطريقة العادية على الشاشة .

وجهاز التلفزيون الذي استعمل في هذا العرض عبارة عن مسجل خاص للافلام ينقل ٣٠ صورة في الثانية على شريط الفيلم العادي (٥٥ م) ولم تزد المدة التي تقع بين توجيه ضربة بوكس في بروكلين وبين رؤية النظارة في برودواي على ٦٦ ثانية . والمعتقد ان علماء التلفزة سيستطيعون في القريب العاجل بجهاز التلفزة الجديد نقل الحوادث ساعة وقوعها مباشرة الى الجمهور في دور العرض .

لماذا يكبر الانسان

أدّى تطوّر العلوم الطبية الى بحث جديد يهدف الى ابطاء التطوّر الطبيعي في جسم الانسان ، وهو التطوّر الذي يؤدي الى الهرم . وتجري الآن بحوث واسعة النطاق في كثير من الجامعات الامريكية لمعرفة كيفية تقدم خلايا الجسم في السن . ولماذا يتوقف نشاط تلك الخلايا وانتاجها

عند المتقدمين في العمر . ويعتقد الدكتور ادوارد بورتز ، رئيس الجمعية الطبية الأمريكية أن متوسط عمر الانسان ، بالقياس الى متوسط عمر الحيوان ، يجب أن يكون ١٥٠ عاماً بدلاً من ٦٨ كما هو الحال في الوقت الحاضر . ويقوم الباحثون الآن بالبحث عن الأسباب التي تحول دون بلوغ المائة والخمسين وهل ترجع تلك الأسباب الى تراكم التجارب البدنية والعاطفية عند الفرد ؟ وقد أنشىء أخيراً « معهد التغذية الانسانية » في جامعة « نورث ويسترن » بولاية الينوي . ويبحث رجال هذا المعهد هذه المشكلة من ناحية الغذاء لمعرفة ما اذا كان طعام الانسان وشرابه سبباً في الهرم .

ويقوم معهد فيلس للدراسات الانسانية في كلية انتيوخ بدراسة آثار تجارب الانسان من مولده الى سن النضوج على جسم الانسان . أما جامعة كولومبيا فيدرس اخصائيوها مسألة الوراثة والبيئة .

وقد أشار الدكتور اندرو ايفي الأستاذ بجامعة ايلنوى الى أسباب الكبر فقال انه يعتقد أن التدهور في خلايا الجسم يرجع الى سلسلة من التغيرات تتجمع فيها مواد غريبة في جدران الخلايا وبينها . وقد تكون هذه ناشئة عن اضطرابات الخلايا بسبب ضعف داخلي أو عوامل خارجية أو كليهما .

ويقول الدكتور وارد كرامبتون أن ملايين يموتون سنوياً بسبب الأمراض المزمنة ويجب على الطب الوقائي أن يضع حداً لذلك . وقد تطوع خمسمائة شخص في جامعة مينسوتا لاجراء تجارب عليهم في هذا الموضوع مدة عشر سنوات ، لمعرفة العوامل التي تؤدي الى تصلب الشرايين وارتفاع ضغط الدم . ويبحث الآن عدد من الاخصائيين لمعرفة ما إذا كان النشاط البدني أو الغذاء يمنع أو يؤخر الأمراض التي تحدث تدهوراً في الجسم

ومن المتوقع أن يتوصل العلماء بعد ثلاثين عاماً الى مضاعفة عمر الانسان .

بعثات الكشف في المناطق القطبية

يتولى المعهد الامريكي الكندي للمناطق القطبية ، وادارة الأبحاث التابعة للاسطول الأمريكي تمويل بعثات من الدول الأوربية والولايات المتحدة للكشف عن المناطق القطبية . وستدور معظم تلك الأبحاث في مناطق الاسكا ولبرادور وشمال كويبك وخليج هدسون . وأهداف تلك الأبحاث معرفة ما يأتي :

تاريخ استيطان الاسكيمو بالقرب من مضيق بيرنج ، لماذا لا توجد الضفادع والحيوانات البرية والبحرية في المناطق القطبية البحث عن مسكن طائر نادر الوجود طويل القدم طويل المنقار . دراسة منطقة الانتقال من أقاليم الغابات الى مراعي التندراء ، دراسة كيمياء الدم عند الحيوانات القطبية ، والحياة القطبية للبكتريا وآثار التغييرات الجوية في الحيوان والانسان .

المصادفة تكشف عن وسيلة جديدة لمنع الاصابة بنزلات البرد

أدّت سلسلة من المصادفات ، تلتها أبحاث دامت عدة سنين ، الى الكشف عن وسيلة تبشر بالنجاح يمكن بها منع الاصابة بنزلات البرد المعروفة ، وقد وصفت جمعية « هيجيا » الطبية الامريكية هذه الطريقة في نشرة أذاعتها على رجال العلم ، بأنها طريقة سهلة قليلة النفقات . وتتلخص هذه الطريقة الجديدة في رش الغرف ببخار تريثيلين الجليكول ، وهي مادة عديمة اللون والرائحة لا تؤذي الانسان ولكنها تفتك بالبكتريا العالقة بالهواء .

ولم يكن القصد في استخدام عقار الجليكول في أول الأمر منع الاصابة بنزلات البرد ولكنه استخدم لاستخلاص الرطوبة من الهواء في بنك نيويورك فأدى الى خفض حالات الاصابة بالبرد بين الموظفين من ٩٦٥ حالة الى ٤٩٦ حالة في خلال عام واحد ، ومن هنا بدأت سلسلة من التجارب والبحوث للكشف عن السبب الذي أدى الى نقص حالات الاصابة بالبرد . وقد وجد العلماء قبل ذلك ان كمية ضئيلة من الجليكول لا تكاد تبلغ ثلاثة أجزاء من مئة جزء من الجرام تقضي على عدد من البكتريا يبلغ ١٢ر٠٠٠ر٠٠٠ ، وثبت ان الجليكول لا يسبب ضرراً ما ، فقد أعطيت منه جرعات كبيرة للفيران والقردة ولكنها لم تصب بأي أذًى ، بل انه وقى الارانب التي تجري عليها التجارب من مرض السل ، ووقى الفيران من الاصابة بالانفلونزا .

وفي عام ١٩٤٣ بعد ما ثبت أن الجليكول مادة غير ضارة بدأت التجارب برش بخاره في معسكرات رجال البحرية فانخفضت اصابات البرد في هذه المعسكرات الى الثلث تقريباً وفوق ذلك فقد نقصت اصابات التهاب الغدة النكفية ٣½ مرة تقريباً .

وعلى الرغم من ذلك فقد ظلّ الجليكول سرّاً مغلقاً الى أن أثبت الدكتور تيودور بوك أن السر يتلخص في قابلية الجليكول لامتصاص الرطوبة والماء على العكس من المواد الأخرى التي كانت تستخدم قبل ذلك لتطهير الجو وكانت لا تستطيع اختراق قطيرات الماء التي تغلف البكتيريا . وأثبت الدكتور بوك أن البخار الذي ينشأ من انقسام قطيرات الجليكول هو الذي يقضي على البكتريا لا قطيرات الجليكول نفسها ، كما أثبت أن جزيئات الجليكول تنفذ الى البكتريا فتقضي عليها قضاء مبرماً .

ونذكر على سبيل المثال أن جراماً واحداً من بروبيلين الجليكول يطهر ٢ر٠٠٠ر٠٠٠ سنتيمتر مكعب من الهواء إذا رش رشاً عادياً ، ولكن اذا ما رش بخار نفس هذه

كبة لطهرت ٢٠ر٠٠٠ر٠٠٠ صنتمتر مكعب . ودل البحث على أن تريثيلين لجليكول أقوى بكثير إذ أن جراماً واحداً منه طهر ٥٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ صنتيمتر مكعب من لهواء وبدأت المصانع والمكاتب والمستشفيات ي الولايات المتحدة في استخدام هذه الطريقة نذ ذلك الحين بنجاح واضح ، وقد اتضح ن هذه الوسيلة تقضي على أنواع أخرى ن البكتريا والفيروس ، ويبدو أن من يستنشق بخار الجليكول لمدة بضع ساعات يكتسب دمه المناعة ضد البكتريا والميكروبات الأخرى مدة ساعات طويلة

ويعمل العلماء في صنع جهاز صغير عملي لنفث بخار الجليكول عند استخدامه في المساكن والمدارس والمكاتب بنفقات قليلة . لتخفيض عدد اصابات البرد التي تعتري سكان الولايات المتحدة ، وتقدر في كل عام بحوالي ٢٨٠ر٠٠٠ر٠٠٠ .

اجراء ابحاث ذرية
في بروكهافن بنيويورك

سيشهد هذا الصيف افتتاح جامعة جديدة في بروكهافن بلونج ايلاند بمدينة يويورك لاجراء أبحاث ذرية تقتصر على وسائل استخدام الذرة في أغراض سلمية ، ويشرف على ادارة هذا المعهد الثقافي ، لمعروف باسم « معمل بروكهافن الوطني » تحاد الجامعات ، وهو هيئة لا تبغي ربحاً وتضم تسعاً من كبريات الجامعات في شرق ولايات المتحدة .

وتتولى الحكومة تمويل هذا المشروع ن طريق لجنة الطاقة الذرية ، ولن يكون للأبحاث التي تجري في بروكهافن علاقة لشؤون العسكرية . وستكون كلها خاصة زيادة مقدرة الانسان على مكافحة الأمراض وانتاج المواد الضرورية في الحياة ، واضاءة الجوانب المظلمة في العقل الانساني حيث يكمن الخوف من الحرب .

وسيعمل في بروكهافن حوالي أربعمائة عامل ، وما ينيف على ألف خبير ومساعد وسينقسم العاملون في هذا المعهد الى ثلاث مجموعات : أساتذة دائمون للتدريس والأبحاث ، وخريجون للتدريب على الأبحاث الذرية ، وعلماء زائرون ذوو نظريات جديدة لهم مطلق الحرية في العمل على اثباتها .

⁂

ومما هو جدير بالذكر أن العمل يسير في معامل بروكهافن منذ عام مضى . ويجري الآن تنفيذ برنامج لتدريس الفوائد السلمية للذرة في المعارض والمعاهد القريبة من بروكهافن .

مكتبة المقتطف

الكتاب الذهبي

لمهرجان خليل مطران بك

دار الهلال — ٣٢٠ صفحة مصورة من المعجم الكبير

لا تزال محافل الأدب في مصر وفي غير مصر تذكر تلك الحفلات الأدبية البهيجة الخالدة التي دعا الوفاء إلى تنظيمها في العالمين القديم والجديد لتكريم الأستاذ الجليل خليل مطران بك شاعر القطرين ورائد التجديد في النهضة الفكرية المعاصرة وقطب البيان المرموق في دنيا الناطقين بالضاد وفخر أبناء المشرق في سجاياه وخلاله .

لا تزال تذكر حفلة دار الأوبرا التي أسبغ عليها جلالة الفاروق فيضاً من رعايته السامية فشملها بعطفه وبرّه وكرّم خليل مطران بك بلقب رفيع كما اقترن باسمه ذكر فضل الفاروق على نهضة الأدب وعلى رجال الرأي ... لا تزال تلك الحفلة ملء السمع ، وما فتئت الخطب التي تبارى في إلقائها دهاقنة السياسة وزعماء الفكر والقصائد التي أنشدها كبار الشعراء ، تتردّد أصداؤها في الأذن فتصيخ لها بلهفة واهتمام لأن محورها يدور حول خليل مطران إمام الأوفياء في أيام ندر فيها الوفاء ، وزعيم المروءة والشهامة في أوان تفتقد فيه هاتان الخصلتان .

فما برحنا نجترّ من الذاكرة خطاب السنهوري باشا ونستعيد كلمة خليل ثابت بك ، ونسترجع شعر الأساتذة العقاد وملاط ومحي الدين والأمير ونستروح شذى كلمات أنطون الجميل باشا ودسوقي أباظه باشا ومحمد علي علوبه باشا وزكي طليمات وسامي السراج وفؤاد

صرّوف وهيكل باشا ومحمد عبد الغني حسن ولا نزال نرتدّ الى ما أبطنه الوعي لنتذاكر ما قيل في مطران من الدكتور طه حسين بك والدكتور فارس الخوري بك والدكتور بشر فارس والأستاذ خليل شيبوب والأستاذ عباس المصفي والأستاذ مختار الوكيل وسواهم من حملة القلم ورجال النظم، فتشعر النفس بنوعٍ من الرضا لا يسيء إليه إلاّ النسيان الممقوت ولا ينتقص من قدره إلاّ ترادف الأيام وتباعد العهد.

ولذلك لم تكد لجنة تكريم خليل مطران بك تصدر كتاباً ذهبيّاً ينطوي على كل ما قيل في هذا الشاعر الفحل، حتى تلقيته كالجائع الصائم يقع على طعام بعد سغب فلا يملك إلاّ أن يبتلع بغير ازدراد في نهم ورجاء مزيد.

فهذا الكتاب كحلبة السباق فيه جياد كثيرة تتبارى لتبلغ هدفاً واحداً وقد بلغته جميعاً لأنه مرمى يستهوي كل فارس من فرسان الأدب، ولأن تكريم خليل مطران تبعة كنا نجرم في حق أنفسنا لو لم ننهض بها في حياته.

ولقد حاول كل من تحدث عن خليل مطران أن يطرق ناحية بعينها من حياته يبرزها ويجلو في آفاقها مما جعل الكتاب على تفرّق فصوله وتباعد كتّابه وتنائي مشاربهم تنتظمه وحدة واحدة هي التنويه بمحامد خليل مطران انساناً رقيق الشعور وأديباً خلاً تدين له الضاد بالكثير، ورجل مروءة وأريحية وشهامة لا يجاريه في مضمارها إلاّ قليلون، ومحدّثاً لبقاً يسوق الفكاهة في مواضعها فيحسن الحديث ويحسن المرح، ومجدّاً دأبه، أن يكون في الطليعة أبداً يقود الصفوف ويرشد أجيالاً بعده من الأدباء.

وإن لجنة تكريم خليل مطران، التي عرف جميع أعضائها بغير استثناء بوفائهم وادراكهم لأقدار الرجال، لتستأهل الثناء سابغاً لأنها وان رامت أن تكرم خليل مطران، فقد كرمت الأدب والخلق معاً، وان شاءت أن تضفر على هامة خليل مطران تاجاً من ألوان التقدير والتكريم، فقد ضفرت للغة الضاد إكليلاً زينت به مفرقها. ولأنها تعد نموذجاً لما يتعين أن يكون عليه موقف الأجيال الحاضرة من روّادها وقادتها وممهدي الدرب أمامها.

فاذا كان الأدب المعاصر يكرم خليل مطران، فانما يكرم نفسه ويصون للعربية ذخيرة نفيسة لا تقوّم ببدور المال. ونعم ما أسدته لجنة التكريم باصدارها الكتاب الذهبي، ونعم

ماتفعله بشروعها في طبع دواوين مطران وكتبه لأن الخليل من الذين يعتقدون عن تواضع أن نصيبه في رفع مقام الضاد نصيب ضئيل ، مع انه علمٌ خفاقٌ وبندٌ ظلّ أبداً منشوراً مرفرفاً.

وما دام المجال مجال حديث عن خليل مطران ، فلنرج الله أن ينقذ الخليل من محنة المرض التي يجتازها اليوم بصبر وجلد ، وأن يمد في عمر رجل لا أحسبه أساء الى كائن حي ، وأن يدخل على نفسه طمأنينة تردها اليه العافية ، وأن يكرمه الله وهو إلـه المكرمات.

وديع فلسطين

خواطر من الطب

تأليف الدكتور مصطفى الديواني : ١٤٤ صفحة من القطع الاوسط : القاهرة ١٩٤٨

من الخلائق البينة في مؤلفات صديقنا الدكتور مصطفى الديواني أنها علم في أدب. فموضوعها علمي وأسلوبها أدبي . بل لا نبالغ إذ نقول ان أسلوبها يمتاز بالسلاسة والسهولة التي تحبب القراء في العلم وتدنيه من نفوسهم ، وذلك وحده من الاشياء التي تضفي على ما يكتب الدكتور الديواني خصيات يتفرد بها .

وخواطر في الطب من الكتب الفريدة بحق في المكتبة العربية . فهو يعنى بالطفل وهو أساس المجتمع وأساس الاسرة ويعالج ما يتعرض له الطفل من أخطار في أدوار حياته الاولى ويرشد الامهات الى خير ما وصل اليه الطب في أمر العناية بأمر النشء وهو عماد المستقبل . وما يدلك على قيمة الموضوع الذي عالجه الدكتور الديواني في كتابه شيء كمعرفتك أن قدماء اليونان قد جروا على تقليد له معنى عظيم ، فكان الرجال اذا شاهدوا امرأة حاملاً في الطريق وقفوا بخشوع وانحنوا احتراماً . ذلك لأنها تحمل في احشائها المستقبل كله .

السنكسار

وضع الارشمندريت ميشيل عساف — طبع بالمطبعة البولسية في حريصا (لبنان)

وضع حضرة العلامة الارشمندريت ميشيل عساف من الاكليروس البطريركي سفراً نفيساً أسماه السنكسار وضمّنه سير القديسين الذين تكرمهم كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك على مدار السنة .

وقد قدمته مجلة المسرة الغراء إلى قرائها كحلقة أولى من كتاب نفيس مطوّل كامل وضعه حضرة الارشمندريت عساف عن أخبار اولئك الابرار الذين ينبعث من ذكريات تضحياتهم الدينية والانسانية عبق الايمان الوطيد والاخلاص المجيد والتفاني المنزّه عن ترهات الحياة وأباطيل هذا العالم الماديّ الزائل .

وقد طبع هذا السفر النفيس طبعة أنيقة في المطبعة البولسية في حريصا (لبنان)

٨٩ شهراً في المنفى

تأليف الاستاذ محمود حسني العرابي : ٣٢٠ صفحة من القطع الكبير : القاهرة ١٩٤٨

أول كتاب من نوعه في اللغة العربية عالج موضوعاً وعالج أسلوباً وطريقة . فالكتاب سيرة شخصية لمؤلفه لحقبة من حياته أعتقد أنها الحقبة التي كوّنت شخصيته .

عرفت الأستاذ محمود حسني العرابي قبل ان ينفى ولقيته بعد ان عاد من منفاه ، فاذا بي أرى فيه بعد النفي شخصية تختلف اختلافاً كلياً عنها قبل ان تحيط به تلك البلوى الجائحة ، بلوى النفي والحرمان من الجنسية .

ولا يسعك ان تفتح أول صفحات الكتاب فتكف عنه حتى تأتي على آخر صفحة فيه . فانك لا تشعر بأنك تقرأ ، وإنما تشعر بأن بعض مواكب الحياة تمر بك الواحدة تلو صاحبتها ، وتحس بأن الجوّ الذي يكتنفك هو حق الحقائق لا جوّ الأوهام الذي تعيش فيه . تشعر بأنك العبد المسترق لِعُرف الدنيا ، وتوقن بأن الحياة المدنية ليست أكثر من جملة أشياء تواضع عليها الناس ، ولكن أكثرها خطأ ، فكأنك تعيش في عالم أساسه الخطأ ، وأساسه الاستبداد ، وإنك اذا انحرفت شيئاً ما عما تواضع عليه الناس وأخذت به الدول ، فأنت الشريد في دنيا كلها يأس وكلها قنوط وكلها اسفافات ، بل إنك تشرف من ثمت على عالم يلوح لك انه عالم من نسج الخيال لا من واقع الحقيقة .

تشهد فيه خلجات نفسية عميقة كل العمق وان كانت في ظاهرها من بسائط الحياة . انسان يجوع ويشعر بالبرد ويساوره اليأس ويحدوه الأمل وتجري في دمه خلجات الحب ، وهو بعد في موقف من الحياة كله صراع وكله تضارب عنيف بين أمر القوانين وحاجات الحياة . تلمس فيه صراع القلب والمادّة ، وتجالد الشهوة والعقل ، وتنافس الأمل واليأس أيهما يفوز بأن يستولى على تلك النفس التي تريد أن تطمئن فتزلزلها الأحداث وتضربها قوارع الزمن بسياط من نار .

غير أنك تلحظ في تضارب أمواج هذا الخضم أن في الانسانية بقية من روح وحشاشة من عطف وإثارة من حب ، هي كل أمل أولئك الذين لا يزالون يحسنون الظن بالانسان .

والكتاب ثورة ساكنة ، وصرخة هافتة ، بعد أن كان في نفس كاتبه ثورة جامحة وصرخة مُدوِّية . ذلك هو الفرق الذي يلمسه الناقد بين وقدةِ المصيبة ورمادها الذي تخلفه ومصيبة صديقنا العرابي إن كانت قد أصبحت الآن رماداً ، إلاَّ أنَّ في ذلك الرماد شملاً من نار تبدو ثم تخبو ، نؤمل أن تنقلب أقباساً من نور ينتفع أبناء هذا الجيل بما فيها من روائع حقبة من حياة رجل عاش كريماً ونفي كريماً وقضى حياة النفي كريماً فلم تلن له قناة ولا التوى له عود .

ا . م

الأوذيسة

للسيدة عنبرة سلام الخالدي — صفحاته ٢٨٥ — المطبعة العصرية بالقدس

في جوّ مثقل بالهموم ، مشحون بالغيوم ، يسود فلسطينِ الجريح اليوم . تتواثب في نفس أديبة فلسطين الموهوبة السيدة عنبرة سلاَّم الخالدي نوازع الأدب وتطلع علينا بكتاب (الأوذيسة) الذي نقلته الى العربية نقلاً ما أحسبه إلاَّ وقد جاء مطابقاً للأصل وأخرجته إخراجاً متصل الأجزاء ، محبوك السرد ، مطمئن السياق .

وأسلوب (السيدة عنبرة) في ترجمة (الالياذة) قبل عام أسلوبها في نقل الأوذيسة) : براعة أداء وروعة أسلوب ، وقد مهدت لهذه الطرفة الجديدة بكلمة (تمهيد) موزونة في تعريف (الأوذيسة) قالت منها :

« الأوذيسة هي احدى الملحمتين الخالدتين المنسوبتين الى هوميروس « الشاعر اليوناني العظيم ، وهي وصف دقيق لرحلات (أوذيس) ملك إيثاكه ، تلك الرحلات التي دامت عشر سنوات واكتنفتها الأخطار والمشاق في طريق رجوعه الى بلاده ، بعد سقوط طروادة

وتمضي السيدة الخالدية في سرد تفاصيل المعركة سرداً ماتعاً الى أن تقول في الأوذيسة :

« وهي تصف لنا وصفاً رائعاً جذاباً عادات الأغريق في تلك الأيام وتتناول طريقة عيشهم وآداب سلوكهم ، وتعاملهم في أيام سلمهم ، كما وصفت لنا الالياذة حالة هؤلاء الأغريق في أيام حربهم وقتالهم »

ويقيناً أنني ما انكفأت مرة على تلاوة ما يخطه قلم السيدة عنبرة من طرائف البحوث ويُضفيه على الخزانة العربية إلاّ وعادت بي الذكرى الى رسالة تلقيتها يوماً من زعيمة كواتب لبنان السيدة سلمى صائغ في وصف السيدة عنبرة قالت منها :

« ... إن في نساء هذه الأمة العربية قوى هائلة مستترة بدرت لي بوادرها منذ أعوام وكان لي حظ مرافقتها منذ شببتُ ، فيا لروعتها عند ما ترغي وتزبد ، جائشة كالإناء الغالي ، ويالأنوثتها المستحبة تخالف سنن الطبيعة وتقنع بالهمود عندما يوضع الغطاء وتُسد المنافذ وتحكم الاقفال !! ولكنه همود يتلوه تدفّع وإصرار في غير تنطع ودعوى ، وفي غير فظاظة وخشونة ، هو تدفُّع ترافقه يد الله الرؤوم ، فتفتح أمامه النوافذ وتُحل الاقفال لأن فيه الحياة كل الحياة ، ولأن فيه الخير كل الخير !

ها هي السيدة عنبرة في بلاد الغرب تبحث وتنقب وتستقصي ثم تنقل لبني قومها هذه الصور الرائعة التي ما سبق أن جمعها قلم شرقي بهذا الالمام وهذه الاحاطة ، الى هذا الانسجام والاتساق والدقة في التعبير الى هذا التغلغل في لبّ الشيء وكنهه حتى حدّ الاكمال »

بارك الله في قلم السيدة عنبرة وأطال في عمرها لتمدّ الخزانة العربية بمثل هذه الطرائف التي يطرب لها عشّاق أدبها ويقدرونها .

القدس — فلسطين البروى الملثم

الكتاب الذهبي لجريدة البصير

تلقينا من حضرة الأستاذ شارل قميل وموريس قميل صاحبي جريدة البصير التي تصدر في الأسكندرية نسخة من الكتاب الذهبي الذي أصدرته الجريدة بمناسبة مضي خمسين عاماً على انشائها .

وقد اشترك في تحرير هذا السفر النفيس طائفة كبيرة من أعلام السياسة والأدب في الثغر السكندري فجاء الكتاب آية في أناقة الطباعة وجمال الاخراج وحسن التبويب والذوق في انتقاء موضوعاته .

ويطلب الكتاب من دار الجريدة في الاسكندرية ومن وكالتها في شارع قصر النيل رقم ٣٥ في القاهرة .

فهرس الجزء الثالث

من المجلد الثالث عشر بعد المئة

١٦٧ من فلسفة طاغور : ا . م .

١٧١ تنمية مدارك الطفل : شريف النشاشيبي

١٧٥ نظرات في النفس والحياة : ع . ش

١٨٦ سياسة الارشاد الاجتماعي : جمال الدين حمدي

١٩١ نظرة في البشرية (قصيدة) : ادوار مرقص

١٩٦ الرائد اللاسلكي سلاح الحلفاء المصري : عوض جندي

١٩٩ صدى أنشودة الكرمانيول : ماري ماندرون : ترجمة الآنسة نعمت حسني

٢٠٦ عازفة الليل (قصيدة) : يوسف جبرا

٢٠٨ المناعة والتلقيح : الدكتور عبده رزق

٢١٣ الساكن الجديد : محمد مفيد الشوباشي

٢٢٥ قرطبة : محمد رجب البيلي

٢٢٩ باب الاخبار العلمية * تشارلس داروين في حداثته . البحوث الذرية في الطب : وديع فلسطين . عالمنا الذري . تلفزة المسرح . لماذا يكبر الانسان . بعثات الكشف في المناطق القطبية . المادة تكشف عن وسيلة جديدة لمنع الاصابة بنزلات البرد . اجراء أبحاث ذرية في بروكهافن في نيويورك

٢٣٨ مكتبة المقتطف * الكتاب الذهبي لمهرجان خليل مطران بك : وديع فلسطين . خواطر من الطب . السنكسار . ٨٩ شهراً في المنفى ا . م . الاوذيسة : البدوي الملثم . الكتاب الذهبي لمجلة البصير .

٢ — لحق المقتطف

٤٩—٩٦ عالم الذرة او الطاقة الذرية والقنبلة الذرية : بقلم نقولا الحداد